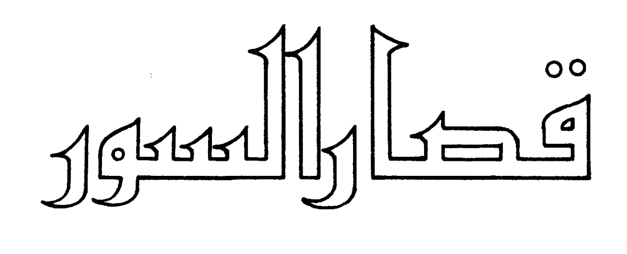


نظرات وتأملات

د. عبدالقادر حسين

مؤسسة الخليج العربي

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م



مؤسسة الخليج العربي
ARABIAN GULF EST.
١٩٥ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة
ت ٣٤٧٢١٨٣ - ٣٤٧٢٢٠٦
تلكس ٢٣١٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

إن أشرف صناعة يمكن أن يتعلق بها إنسان هى صناعة تفسير القرآن وتأويله ؛ لأن الصناعة تشرف بموضوعها كما يشرف الإنسان بقيمته وخلقه ونسبه ، فصناعة الصائغ مثلاً أشرف من صناعة الكنّاس ، وصناعة الطب أشرف من صناعة الدباغة ، فالصنعة الأولى تتعلق بالصحة ، وتخفيف الآلام ، وإزالة الأمراض ، بينما الثانية تنحصر فى جلود الموتى وتجفيفها وتقريظها .

وتفسير كلام الله : ينبوع الحكمة ، ومجمع الفضيلة ، ومعدن الهداية وقد نزّل الله قرآنه؛ لنتدبر آياته ، ونتمسك بأهدافه .

فالقرآن فيه الوعد والوعيد ، والتبشير والتحذير ، والترغيب والترهيب ، والأمر والنهى ، وأصبح ملاذاً للمؤمن يعتصم به من نوازع الأهواء ، وعواصف الأنواء ، وهو أيضاً النور المبين الذى نجد خلاله حلّا لمشكلات المختصمين ، وهو الهداية للسائرين فى طريق الغواية ، والمنحرفين عن سبيل الجادّة .

أجل إن المعارف أنواع شتى ، ولكن أفضلها التفقه فى كتاب الله والإمعان فى آياته ، والتعمق فى معانيه ، ولكى نصل إلى هذه

الآفاق البعيدة علينا أن نفهم ألفاظه ، وندرك معانيه ، ونقف على أسلوبه ومراميه ، وهذا سيقودنا بالضرورة إلى معرفة فصاحته وبلاغته ، وإدراك بيانه وإعجازه، وليس لزاماً أن نقف على قواعد الفصاحة ومسائل البلاغة ، حتى نعرف اتفاق سور القرآن وقواعد البلاغة التى وضعها العلماء ، فبلاغة القرآن تدرك أولاً وتمتلىء بها النفس، ويشحن بها الوجدان ، وإن لم نكن على علم بشىء من القواعد البلاغية التى وضعها العلماء .

يكفى أن تقرأ سورة من سور القرآن فتأخذ بلبّك عباراته ، وروعة معانيه، وجمال تراكيبه ، وما فيه من أسلوب بديع اعترف به أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء من العرب ، ولم ينكر بلاغته أحد ، مهما بلغ به التعصب أو الجحود لرسالة محمد ﷺ ؛ بل إن فصاحة القرآن لم يطعن فيها أحد ، مهما كان مدعياً أو ملحداً ، فقد أخذ بحلاوته وطلاوته كل من يتذوق الأساليب ، سواء كان عن طبع أو تسانده الدراسة ، فهذا شىء فوق الشبهة وأبعد من الظنّة .

لذا عكف العلماء على دراسة القرآن الكريم ؛ ليستخرجوا ما فيه من بلاغة ، فقد اعتبروا القرآن مثالاً يحتذى ، تستخرج منه القواعد البلاغية، وتستنبط منه الخصائص الأسلوبية ، حتى يسير الدارسون على منوالها إذا أرادوا أن يدركوا الفرق بين الأسلوب الجيد والأسلوب الردىء .

لذلك رأيت من واجبى كمسلم، وكدارس للبلاغة بصفة عامة، وبلاغة القرآن بصفة خاصة، أن أجوب آفاق القرآن، وأن أتتبع أغواره - على قدر الاستطاعة - لنستقى منه العبرة، ونتزود به فى شئون الحياة، ومواجهة صعابها، وأن نعتمد عليه فى أقوالنا وأفعالنا .

فالعلم بكتاب الله جلت قدرته الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونزل به جبريل الأمين إلى محمد الرسول؛ حضًا للصلاح، ونهيا عن المنكرات، أفضل العلوم قاطبة، فهو أمتنها حبلا، وأسطعها نوراً، وأعظمها أثراً، وأبقاها ذكراً .

فأردت أن أجلى نكته، وأبرز فوائده، وأجمع أهدافه، فبدأت بتفسير قصار السور، أو جزء «عم يتساءلون»، وقصدت أن يكون موجزاً، لاأتطرق إلى شىء يمكن الإغضاء عنه، دون أن أقصر فى إبراز المعنى أو إجلاء الهدف .

وقصار السور يحفظها التلاميذ فى مدارسهم، ويتلوها المصلون فى صلواتهم، ويتعبد بها الناس فى مساجدهم أو فى دورهم، ولكن هذه السور رغم قصرها الشديد، وإيجازها الوفير، مشحونة بالعبر والفوائد، وبعض ما فيها من ألفاظ قد يخفى معناها على كثير من الناس حتى المثقفين منهم، فيسألك العالم الطبيب مثلا عن سورة الفلق، ما معنى الفلق ؟ أو ما معنى «من شر غاسق إذا وقب»؟ فأى شىء هو الغاسق؟ وما معنى إذا وقب؟ ثم ما النفاثات فى العقد ؟

وإذا كانت هذه التساؤلات وما شاكلها تجرى على ألسنة المثقفين -وقد يكون السبب هو ضآلة محصولهم فى اللغة رغم كثرة ترددها أمامهم، وقرعها لأسماعهم، وربما يكون من العسير عليهم أن يطلعوا عليها فى قواميس اللغة، أو فى مفردات ألفاظ القرآن- فما بالك بمن لم ينل قسطاً من التعليم، وهو أمىّ لا يعرف القراءة أو الكتابة، ولكن يقرأ القرآن بقلب ملىء بالخشوع، فيحس بحلاوته، ويطرب لجماله، دون أن يدرك معنى لألفاظه.

وقد يشعر بهزّة تكتنف أوصاله، فمرّة يقشعر لها بدنه، وأخرى ينشرح لها فؤاده حين يسمع القرآن بأنغامه الرقيقة الساحرة، أو رعودة العاصفة القاصفة، دون أن يعرف مصدر هذه الأنغام التى سرت فى وجدانه، وكيف تأثر بها، وما أسبابها وعللها؟

فكان لزاماً أن أعمل على تفسير هذه الألفاظ وأوضح معانيها، ثم أسعى بعد ذلك لبيان مصدر هذا الجمال الأخاذ، وهذه الأنغام التى تسرى فى الوجدان، قد يكون السبب طريقة النظم فى القرآن، والتحام أجزائه بعضها ببعض فى آياته ومفرداته، بطريقة لا يستطيع أن يحاكيها بشر، لذلك جئت فى كثير من المواضع إلى التركيز على إبراز بلاغة القرآن.

وقد قرأت فى كتب التفسير القديم منها والحديث، ولكل من

المفسرين وجهة ، وبعض هذه التفاسير امتلأت بأشياء غريبة ، لا يقرها منطق ، ولا يسوغها عقل ، فنبذتها نبذاً ، ولم آخذ منها إلا ما يتفق والعقل ، وما يؤيده المنطق ، وابتعدت تماماً عن الإسرائيليات التى احتشدت بها كتب التفسير فأفسدته وهوّنت من شأنه .

كما ضربت صفحاً عن كثير من الآراء التى يتلمسها المفسرون ، ويسطونها فى كتبهم ؛ لإظهار كثرة بضاعتهم ، وطول باعهم ، فيهيم القارىء على وجهه فى كهوف مظلمة من حكايات المفسرين وسردهم الغريب ، فلا يرى فيها القارىء جلال النص بوضوح ، وقد يصيبه الكلل ويعتريه الملل دون أن يدرك شيئاً ، وقد يترك الكتاب الذى بين يديه قبل أن يشبع نهمه من معانى القرآن أو معرفة سر جماله .

ولكن تفسير روح البيان - الذى استلهمته فى هذا الكتاب - للإمام العالم، الجامع فى تفسيره بين الظاهر والباطن ، الشيخ النحرير إسماعيل حقى البرسوى المتوفى ١١٣٧هـ هو الذى ولجت أبواب تفسيره ، وقطفت أزهار تأويله ؛ لأقدم شذاها للقارىء العادى والمتخصص ، فكلاهما بعون الله سيفيد من هذا التفسير الموجز وينتفع بما فيه .

وقد أردت بهذا التفسير الموجز الذى أضعه الآن بين يدى القارىء ، أن يدرك أن كتاب الله يفتقر إلى تفسير يناسب العصر ،

ويتمشى مع الذوق العربى الحديث ، دون أن نقحم عليه ماليس منه ، أو ننسب إليه ماشطّ عنه .

وكثيراً ماكنت أعنى بمشكلات اللغة والنحو والبيان ، وخاصة إذا كان فى هذا تأكيد للمعنى المراد ، أو ترجح لدلالة معينة للعبارة ، على دلالة أخرى يمكن أن ينصرف إليها الذهن ، وكنت من خلال ذلك أتطرق لمشكلات أعم ، وقضايا أهم يغرق فيها المجتمع الجاهلى ، ويكتوى بنارها ، فنجد فى القرآن الكريم تصويراً لهذه المشكلات الفجّة ، ووضع حلول ينشرح لها القلب ، وتسعد بها النفس .

وكنت أحاول أن أغوص فى النص القرآنى ؛ لأستخرج رقيق معانيه ، وأعمد إلى مواطن الإبهام فأزيل مافيها من غموض ، وقد يوفقنى الله فأستنبط من معانى القرآن أموراً جديدة يساندها البرهان الواضح ، والدليل القوى .

وأنا وإن كنت من المقصرين فى هذا العمل ، إلا أنى بذلت غاية الجهد ، وقدر الطاقة ، فليعذر القارىء تقصيرى وخطئى إن وجد فيه تقصيراً أو خطأ .

والله أسأل أن يجعل هذا التفسير خالصاً لوجهه ، وأن يبارك فيه ، وينفع به ، وأن يجعله من صالحات الأعمال ، وباقيات الحسنات إلى آخر الأعمار .

د. عبد القادر حسين

المعـوّذَة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

الحكمة فى التعوذ الاستئذان وقرع الباب ؛ لأن من أتى باب ملك من الملوك لا يدخل إلا بإذنه ، كذلك من أراد قراءة القرآن إنما يريد الدخول فى المناجاة مع الحبيب ، فيحتاج إلى طهارة اللسان ؛ لأن اللسان قد ينجس بفضول الكلام ، فيتطهر بالتعوذ .

وأعوذ بمعنى أستجير أو أستعين أو أستغيث . والعوذ والعياذ مصدران كالصوم والصيام . فالمؤمن يسأل الله تعالى من فضله ، أى : أعذنى يارب . فعدل عن الإنشاء إلى لفظ الخبر وقال « أعوذ » قصداً للتفاؤل بالوقوع كأنه شىء وقع واستعيذ منه بالفعل . يقول الرسول ﷺ « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » فالإنسان يستعيذ بالله من كل داء وضرّ ، ومن كل باغ وشر ، كالأمراض والآلام والفقر وغير ذلك من البلايا والنوازل ، فأعوذ بالله يتناول الاستعاذة من كلها

(**من الشيطان**) المبعد عن رحمة الله تعالى ، وعن ابن عباس رضى الله عنه : عصى الشيطان ربه فلعن ، وصار شيطاناً ، وإنما سمى بهذا الاسم بعد لعنه ، وأما قبل ذلك فكان اسمه عزازيل أو نائل .

وإنما لم يقيد المستعاذ منه بشيء من قبائحه ومضاره كالوسوسة والنزغ وغيرها ؛ لتذهب فيه النفس كل مذهب ويستعاذ من شرّه عموماً .

قال فى روضة الأخيار : الشياطين ذكور وإناث يتوالدون ولا يموتون ؛ بل يخلدون .

والجن ذكور وإناث يتوالدون ويموتون .

والملائكة ليسوا بذكور ولا إناث ، ولا يتوالدون ، ولا يأكلون ولا يشربون .

والجن : أجسام نارية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة كصور الحيات والعقارب ، والكلاب والإبل والبقر والغنم ، والخيل والبغال والحمير والطير ، وبنى آدم ، لها عقول وأفهام ، تقدر على الأعمال الشاقة ، كما كانوا يعملون لسليمان عليه السلام المحاريب والتماثيل والجفان والقدور .

والظاهر أن المراد بالشيطان إبليس وأعوانه ، وقيل عام فى كل متمرد عاتٍ مضلّ من الجن والإنس ، كما قال تعالى ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ **الأنعام ١١٢**

(الرجيم) الملقى من السماء بإلقاء الملائكة له حين لعن . **أو المقذوف بشهب السماء إذا قصدها ، وهى صفة ذم للشيطان ، والشيطان وإن كانت له صفات ذم عديدة ، إلا أن أجمع مساوئه هو الرجيم ؛ لأنها تجمع جميع صفات الذم التى تلاحقه .**

(فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم) أى أعوذ بالله من سوء أفعال الشيطان كما تقول : أخاف من الله ، وأنت تخاف عذاب الله ، وعقاب الله ، وغضب الله . والتعبير القرآنى تعبير مجازى ؛ لأن الأفعال السيئة ملازمة للشيطان ، وهو ملزوم لها .

بسم الله الرحمن الرحيم

البسملة آية فذّة ، وليست جزءاً من سورة ، أنزلت للتبرك والابتداء بها فى كل أمر ذى بال ، سواء أكان خطيراً أم غير ذلك ، فهى مفتاح القرآن ، وجاءت بعد الاستعاذة للإعراض عما سوى الله ، بالإقبال عليه والتوجه إليه . وكان الكفار يبدأون بأسماء آلهتهم فيقولون : باسم اللات والعزى ، فوجب على المسلمين أن يقصدوا الله الواحد القهار الرحيم .

(الله) قدم لفظ الجلالة وقال : باسم الله ، وخصه بالابتداء ، فقدمه وأخر الفعل ، أى باسم الله أقرأ أو أتلو ، فجعل لفظ الله مبدأ للتسمية قبل القراءة والتلاوة ؛ حتى يبعد عنه نزغ الشيطان ، ويفرغ لما يأتى بعد ذلك . فكلمة الله هى الاسم الأعظم .

فإن قيل : إن من شرط الاسم الأعظم أنه إن دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، ونحن ندعو به ونسأل ، ولا نرى الإجابة فى معظم الحالات والأوقات .

قلنا : إن للدعاء آداباً وشرائط لا يستجاب الدعاء إلا بها ، فأول شرائطه إصلاح الباطن باللقمة الحلال ، وآخر شرائطه الإخلاص وحضور القلب ، فالقلب الحاضر فى حضرة الله ، شفيع له فى إجابة دعواه . وقدم لفظ الجلالة ليفيد الاختصاص والاهتمام بشأنه .

(**الرحمن الرحيم**) الرحمة هى رقة القلب والانعطاف ، ومنه الرحم ، لانعطافها على ما فيها ، والمراد به هنا التفضل والإحسان ، فأطلق السبب على المسبب ، أى أطلق رقة القلب وانعطافه وأراد بها ما تؤدى إليه من تفضل وإحسان .

والمعنى : العاطف على مخلوقاته بإرزاقهم ودفع الآفات عنهم ، لا يزيد فى رزق المتقى ، ولا ينقص من رزق الفاجر ؛ بل يرزق الكل بما يشاء .

وهو (رحيم) إذا سئل أعطى ، وإذا دعى أجاب ، بل إنه تعالى إذا لم يُسأل غضب ، على خلاف بنى آدم حين يسأل يغضب ، وإلى ذلك أشار رسول الله ﷺ بقوله : « إن لله مائة رحمة ، أعطى واحدة منها لأهل الدنيا كلها ، وادخر تسعا وتسعين إلى الآخرة يرحم بها عباده » .

والرحمن أبلغ من الرحيم ؛ لأنه يدل على الكثرة والسعة والامتلاء كشبعان بخلاف الرحيم فلا تفيد نفس المبالغة ، وكذلك فلفظ الرحمن صفة تتعلق بالذات ؛ والرحيم صفة تتعلق بالعباد .

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أنزلت فاتحة الكتاب بمكة يوم الجمعة كرامة أكرم بها محمد عليه السلام ، وكان معها سبعة آلاف ملك حين نزل بها جبريل على محمد عليهما السلام .

ومن فضائل هذه السورة قوله عليه السلام :

« لو كانت فى التوراة لما تهود قوم موسى ، ولو كانت فى الإنجيل لما تنصّر قوم عيسى ، ولو كانت فى الزبور لما مسخ قوم داود عليه السلام ، وأيما مسلم قرأها أعطاه الله من الأجر كأنما قرأ القرآن كله ، وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة » .

وسميت « بفاتحة الكتاب » ؛ لأن الحمد فاتحة كل كلام ، أو لأنها أول سورة نزلت كاملة ، أو لأنها فاتحة أبواب المقاصد فى الدنيا ، وأبواب الجنان فى العقبى .

وسميت أيضاً بالسبع المثانى ؛ لأنها سبع آيات ، أو لأن من قرأها غلّقت عنه أبواب النيران السبعة ، وأما بالمثانى ؛ لأن نزولها مرتين : مرة فى مكة ، ومرة فى المدينة .

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ أى الحمد الكامل فاللام للعهد . أو جميع المحامد ، فاللام للعموم والاستغراق ، والحمد عند الصوفية ، إظهار كمال المحمود ، وكماله فى صفاته وأفعاله وآثاره .

فالحمد بالقول ، هو حمد اللسان وثناؤه على الله بما أثنى به الحق على نفسه على لسان أنبيائه .

والحمد بالفعل : هو الإتيان بالأعمال البدنية من العبادات والخيرات ابتغاء لوجه الله تعالى .

والحمد بالحال : هو اتصاف الروح والقلب بالكمالات العلمية والعملية والتخلق بالأخلاق الإلٓهية .

فالحمد شامل للثناء ، والشكر والمدح ، ولذلك صدر كتابه بأن حمد نفسه بالثناء فى لفظة باسم الله ، والشكر فى لفظة رب العالمين ، والمدح فى لفظة : الرحمن الرحيم مالك يوم الدين .

رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ بعد ما ذكر اسم الذات وهو (الله) الجدير بجميع المحامد فقال ﴿الحمد لله﴾ أعقبه بأسماء الصفات وهو رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، فجمع بذلك بين الاستحقاقين أسماء الذات وأسماء الصفات ، وكلمة (ربّ) تفيد معنى التربية والإصلاح ، فوفّر غذاء المخلوقات بترتيب غذائها فى النبات بحبوبه وثماره ، وفى الحيوان بشحمه ولحمه ، وفى الأرض بأشجارها وأنهارها ، وفى الأفلاك بكواكبها وأنوارها ، وفى الزمان فجعل الليل لباساً وجعل النهار معاشاً ، و﴿العالمين﴾ جمع عالَم ، والعالم اسم جمع لاواحد له من لفظه .

ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ كرر هاتين الصفتين بعد ما ذكرهما فى

البسملة ؛ ومن فائدة التكرار أن يعلم أن رب العالمين هو الرحمن الذى يرزقهم فى الدنيا ، الرحيم الذى يغفر لهم فى العقبى .

والفرق بين الرحمن الرحيم ، أن كلمة الرحمن تختص بالحق سبحانه ، فلا يوصف بها إنسان ، ولا يصدر معناها عن مخلوق ، بخلاف الرحيم فيتصور صدور هذا الوصف منهم ، فتقول فلان رحيم ولا يصح أن نقول فلان رحمن .

فإن قيل : كيف يصف جل جلاله نفسه بأنه رحمن رحيم ، وقلما يخلو أحد من بلوى أو شكوى ؟ .

قلنا : ما من بليّة أو محنة إلا تحتها رحمة أو منحة .

فالتكاليف لتطهير الأرواح عن شوائب الجسد ، ومتعلقات المادة .

وأوجد النار لصرف الأشرار إلى أعمال الأبرار .

وخلق الشيطان ليتميز المخلصون من العباد .

فلولا الرحمة وسبْقها للغضب لم يكن للكون وجود ، وصُبّ العذاب على العباد صبًّا .

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ أى مالك الأمر كله فى يوم الجزاء ، فأضاف اليوم إلى الدين كإضافته إلى ما يقع فيها من أحداث ، كيوم الأحزاب ويوم الفتح . وتخصيص ملكه بيوم الدين؛ لتعظيم ذلك اليوم

وتهويله . أو لبيان تفرد ذلك اليوم بإجراء الحساب والثواب والعقاب فيه وانقطاع العلائق بين الناس حينئذ بالكليّة ، ففى ذلك اليوم لا يكون مالك ، ولا قاض ، ولا مجازٍ غيره ، فللّه وحده القوة الكاملة ، والولاية النافذة ، والحكم الجارى ، والتصرف الماضى .

وقد سئل قطرب إمام اللغة عن الفرق بين المالك والملك ، فقال : بينهما فرق كبير . أما المالك فهو الذى ملك شيئاً من الدنيا ، وأما الملك ، فهو الذى يملك الملوك . ولذلك يقرأ أهل الحرمين ﴿ مَلِك يَوْمِ الدِّينِ ﴾ بحذف الألف ؛ لأن ملك من الملك الذى هو عبارة عن السلطان القاهر ، والاستيلاء الباهر ، والغلبة التامة ، والقدرة على التصرف الكلى فى أمور العامة بالأمر والنهى ، وهو الأنسب بمقام الإضافة إلى يوم الدين . انتهى

وذكر هذه الصفات متتالية كأنه يقول :

خلقتك فأنا إلّه .

ثم ربيتك بالنعم فأنا رب .

ثم عصيت فسترت عليك فأنا رحمن .

ثم تبت فغفرت لك فأنا رحيم .

ثم لابد من الجزاء فأنا مالك يوم الدين .

والدين عند الله الإسلام ، والإسلام على نوعين :

إسلام بالظاهر ، وإسلام بالباطن .

فالإسلام الظاهر بإقرار اللسان وعمل الأركان .

وإسلام الباطن بانشراح القلب والصدر بنور الله تعالى .

فإسلام الظاهر هو إسلام الجسد لأوامر الله ونواهيه .

وإسلام الباطن هو الإسلام الروحانى الذى يقتضى استسلام القلوب ، ونفاذ النور إلى الصدور ، فالملك لله وحده ، ولا مالك إلا مالك يوم الدين .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه إشارة إلى أن العابد ينبغى أن يكون نظره إلى المعبود أولاً ثم ينتقل إلى العبادة ، من حيث إنها صلة بينه وبين الحق ، وقدم المفعول هنا لقصد الاختصاص ، أى نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك ، والعبادة غاية الخضوع والتذلل .

والضمير فى (نعبد) و(نستعين) لمن يقرأ ولمن معه من الموحدين ، أدرج عبادته فى تضاعيف عبادتهم ، وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تقبل ببركتها ويستجاب له .

وخصص العبادة لله ؛ لأن العبادة نهاية التعظيم ، فلا تليق إلا بالمنعم الذى وهب لنا الحياة فقال : ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ البقرة ٢٨ ولأن أحوال العبد بين ماض وحاضر ومستقبل . فعن الماضى نقله من العدم والموت والعجز ، إلى الوجود والحياة والقدرة ، وفى الحاضر يعينه على الحاجات ، ويدفع عنه الملمات ، فهو رب رحمن رحيم ، وفى المستقبل يجازيه بأعماله فهو مالك يوم الدين ،

فمصالحه فى الحالات الثلاث لا تستتب إلا بالله ، فلا مستحق للعبادة سوى الله .

ثم قوله (نعبد) يحتمل أن تكون من العبادة أو من العبودية فمن العبادة : الصلاة بلا غفلة ، والصوم بلا غيبة ، والصدقة بلا منّة ، والحج بلا سُمعة ، وسائر الطاعات بلا آفة .

ومن العبودية : الرضى بلا خصومة ، والصبر بلا شكاية ، واليقين بلا شبهة ، والإقبال بلا رجعة ، والإيصال بلا قطيعة :

وفى قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ؛ إذ ليس بين العبد وربه إلا حجاب يسير ، إذا اخترقه العبد وصل إلى مشاهدة مالك النفس ورب الخلق أجمعين .

﴿ وإياك نستعين ﴾ كرر إياك للاختصاص ، أى اختصاص الله سبحانه بالاستعانة ، وطلب العون على عبادته ، وعلى ما لا طاقة لنا به ، وعلى محاربة الشيطان الذى يمنعنا من عبادة الله ، أو يعيننا على أداء الحق ، وإقامة الفرض ، وتحمل المكاره وطلب المصالح .

وقدم العبادة على الاستعانة فقال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ليوافق رءوس الآيات من جهة ، وليعلم أن تقديم الوسيلة - العبادة - على الاستعانة ، أدعى إلى الإجابة . فالجمع بين العبادة والاستعانة ، جمع بين الافتخار والافتقار ، افتخار بكونه عبداً عابداً ، وافتقاره إلى معونته وتوفيقه .

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ كأنه قيل : كيف أعينك ؟ فقالوا : اهدنا الصراط المستقيم ، فهذا شبه كمال اتصال فى عرف البلاغيين .

فتحقيق العبادة أولاً كما فى قوله تعالى ﴿ إياك نعبد ﴾ والاستعانة ثانياً كقوله ﴿ وإياك نستعين ﴾ ثم الثبات على الهداية فقال : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ؛ لأن الظاهر فى الحال قد يتغير فى المآل .

والصراط المستقيم استعارة عن ملة الإسلام ، حيث شبه الإسلام بالطريق المستقيم الذى لاعوجَ فيه ، بجامع الهداية التى تؤدى إلى الاستقامة سواء فى الطريق المستقيم ، أو فى الإسلام . وهناك لطيفة أخرى فى تسمية الدين بالصراط ، وهى أن العبد الطالب للإيمان لابد له من قطع المسافات ، واحتمال المكاره والآفات ، ليكرم بالوصول والموافاة ، وليس أصدق فى ذلك غير الطريق بما يحفّه من الأخطار وطول المسافات .

والهداية تتمثل فى أن يكون المرء وسطاً فى كل أعماله ، بين الإفراط والتفريط ، فى تحقيق رغباته ، وفى غضبه ، وإنفاق ماله ، أى يكون وسطاً بين البخل والإسراف ، ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ الإسراء ٢٩ (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ الإسراء ١١٠ و﴿مازاغ البصر وما طغى ﴾ النجم ١٧ وهكذا الأمر فى باقى الأخلاق ؛ فإن لنفسك عليك حقاً ، ولزوجك

عليك حقاً ، فلا تصمْ الدهر أبداً ، ولا تقم الليل دوماً ، بل صمْ وأفطر ، وقم ونم . وهكذا نرى الشريعة قد تكفلت بالاعتدال فى كل ترغيب وترهيب .

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ . بدل مطابق من الصراط المستقيم ، وأنعم عليهم بإيصال النعم إليهم ، فيشعرون بلذة ما بعدها لذة حين ينعمون بالدين الحق . وهم فى ذلك طبقات :

فالعارفون : أنعم الله عليهم بالمعرفة والإدراك .

والأولياء : أنعم الله عليهم بالصدق والرضى .

والأبـرار : أنعم الله عليهم بالحلم والرأفة .

والمريدون : أنعم الله عليهم بحلاوة الطاعة .

والمؤمنون : أنعم الله عليهم بكمال الاستقامة .

وأضاف الصراط إلى العباد فى قوله : ﴿ صراط الذين ﴾ تشريفاً للعبد وتقريباً ، وتسلية لرسوله وتكريماً .

فالله أنعم على مخلوقاته بالعناية وعلى أرواحهم بالهداية ، وعلى قلوبهم بقمع الهوى وقهر الطبع ، بالوقوف أمام مكائد الشيطان ، فالله أنعم على عباده بنعمه الظاهرة كإرسال الرسل ، وإنزال الكتب واتباع السنة ، واجتناب البدعة . ونعمه الباطنة حين أفاض بنوره على الوجود كله كما قال ﷺ « إن الله خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليه من نوره فظهر » .

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ أى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال ، فهى بدل من (الذين) والغضب ثورة النفس عند إرادة الانتقام ، فهو حالة نفسية تحصل عند غليان النفس وتوهج الدم فى القلب فتشتد شهوته للثأر والانتقام ، والغضب هنا مجاز عن شديد عقوبته تعالى للمغضوب عليهم .

والضلال : العدول عن الطريق السوى عمداً أو خطأ .

أو المغضوب عليهم : هم اليهود لقوله تعالى فى حقهم: ﴿ من لعنه الله وغضب عليه ﴾ .

والضالون : هم النصارى لقوله تعالى فى حقهم ﴿ قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً ﴾ المائدة ٧٧ وإن كانت صفة الغضب والضلال تنطبق على كليهما إلا أن الغضب أليق باليهود ؛ لتمردهم فى كفرهم وقتلهم الأنبياء وغير ذلك .

يقول أحد المفسرين ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ هم الذين أخطأهم ذلك النور فضلوا فى تيه هدى النفس ، وتاهوا فى ظلمات الطبع والتقليد فغضب الله عليهم مثل اليهود ، ولعنهم بالطرد والإقصاء حتى لم يهتدوا إلى الشرع القويم ، وبعدوا عن الصراط المستقيم ، أى عن المرتبة الإنسانية التى خلق فيها الإنسان فى أحسن تقويم ، ومسخوا قردة وخنازير صورة أو معنى . انتهى .

أو يراد بـ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ بالغيبة بعد الحضور ، والمحنة

بعد السرور، والظلمة إثر النور . ﴿ولا الضالين﴾ بغلبة الفسق والفجور، وانقلاب السرور بالشرور .

(**آمين**) اسم فعل بمعنى استجب معناه : ياالله استجب دعاءنا وليست من القرآن اتفاقاً ، ولم ينقل أحد من الصحابة أو التابعين ومن بعدهم رضى الله عنهم أنها قرآن ، ولكن يسنّ أن يقولها القارىء مفصولة بعد الفاتحة قال عليه السلام : «إذا قال الإمام ﴿ولا الضالين﴾ فقولوا (آمين) فإن الملائكة تقولها ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» .

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾

عمّ: أصلها عن ما أدغمت إحداهما فى الأخرى فصارت عمّا، والاستفهام هنا غير جار على حقيقته؛ لأن الله لا يخفى عليه شىء حتى يتساءل عنه، وإنما جاء الاستفهام لمجرد التفخيم عن المسئول عنه، والمعنى عن أى شىء عظيم يتساءلون، يتساءل أهل مكة عن البعث والحشر، ويتحدثون إنكاراً واستهزاء عن وقوعه، «والنبأ العظيم» هو الخبر الذى له شأن وخطر، كأنه قيل: عن أى شىء يتساءلون؟ هل أخبركم به؟ إنه النبأ العظيم الخارج عن مفهومكم وقدراتكم، والفائدة فى ذكر السؤال متلوا بالجواب، أن هذا الأسلوب أقرب إلى الإيضاح والتفهيم. وبعد أن وصف النبأ بالعظيم، وصفهم بالاختلاف فى شأنه، فمن جازم باستحالته يقول: ﴿إنْ هِيَ إلّا حَيَاتُنَا الدّنيا نموتُ ونَحْيى﴾، ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ ومِن مُقرّ بأن آلهته تشفع له، كما قالوا: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾.

ومِن شاكّ يقول: ﴿ماندرى ما السَّاعةُ إنْ نظنّ إلّا ظنًّا وما نحنُ بِمَسْتَيْقِنِين﴾ وقدم (فيه) على (مختلفون) للاهتمام بشأن البعث من جهة، ورعاية للفواصل من جهة أخرى.

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ فى هذا الأسلوب

ردع ووعيد : ردع يستفاد من كلّا ، ووعيد يستفاد من سيعلمون ، أى ليس أمر البعث مما ينكر أو يشك فى وقوعه بحيث يتساءل عنه ، فإن البعث واقع لا محالة ، ولا شك فى ذلك ولا دافع له ، وكرر الردع والوعيد مبالغة فى التوكيد ، وثُمّ وإن كانت تستعمل فى التراخى الزمنى ، إلا أنها استعملت هنا مجازاً فى التراخى النوعى أى فى شدة الردع وشدة الوعيد ، وذلك للتباعد بين المعطوف والمعطوف عليه ؛ لأن المقام هنا مقام تشديد وتهديد . فسيعلمون عما قليل حقيقة الحال إذا حلّ بهم العذاب ، وسيطر عليهم النكال .

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ المهاد : البساط والفراش ، أى ألم نجعل الأرض بساطاً تتقلّبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه ، وقرىء (مهْداً) تشبيهاً للأرض بمهد الصبى ، الذى يأنس به ، وينعمَ فيه ، وينام عليه .

وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ الأوتاد : جمع وتد ، المتزلزل المتحرك ، أى جعل الجبال كالأوتاد للأرض حتى يمسكها فلا تميد بأهلها يمنة أو يسرة ، أو تسقط فى عباب الماء .

وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ عبر بالفعل الماضى (خلقناكم) وعطفه على المضارع المنفى بلم ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ فهو فى حكم الماضى أى قد جعلناها... ، أى وخلقناكم حال كونكم أصنافاً من ذكر وأنثى للسكنى والمودة والتناسل ، والزوج يقال لكل واحد من

القرينين والمزدوجين كالنعل والقرط ، ولا يقال للاثنين زوج ، بل زوجان ، يقول صاحب القاموس : يقال للاثنين هما زوجان وهما زوج .

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ⑨ أى كالموت ، والمسبوت : الميت ، من السبت وهو القطع ؛ لأنه مقطوع عن الحركة ، ومنه يسمى يوم السبت ؛ لانقطاع بنى إسرائيل فيه عن العمل ، أى جعلنا نومكم نوعاً من الموت ، وهو الموت الذى ينقطع ولا يدوم ، وبهذا الاعتبار قيل للنوم هو أخو الموت ، وإذا كان على قدر الحاجة فهو نعمة من نعم الله الجلية .

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ⑩ أى يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ، ولعل المراد به ما يستتر به عند النوم كاللحاف والملاءة وغيرهما ، فإنّ شبه الليل به أكمل وأدق .

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ⑪ أى حياة تبعثون فيها من نومكم وتسعون فيه إلى معاشكم ، ولم يقل مثلاً : « وجعل يقظتكم حياة » لتتم المطابقة بين هذه الآية والآية السابقة . وعبر بالنهار عن اليقظة ؛ لأن النهار يستلزم اليقظة غالباً .

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ ⑫ أى سبع سموات قوية الخلق ، محكمة البناء ، لا يؤثر فيها مر العصور ولا كرّ الدهور .

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ ⑬ أى وأنشأنا شمساً مضيئة قوية فى

ضوئها، جامعة بين الحرارة واالنور، والتعبير بالسراج مرادف للشمس، كما تعبّر بالبناء عن السماء .

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾ المعصرات : السحائب إذا أعصرت، أى شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر، وكان ينبغى أن يقال : المعصَرات بالفتح، لأنها اسم مفعول لأن الرياح تعصرها فتنزل الأمطار . و«ثجاجاً» أى ينصبّ بغزارة ويعظم النفع به .

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ أى حباً كثيراً يكون قوتاً للإنسان يصلح به بدنه كالحنطة والتمر والشعير، ونباتاً يكون علفاً للحيوان كالتبن والبرسيم، يقول تعالى : ﴿كلُوا وارعَوا أنعامَكم﴾ وقدم الحبّ على النبات مع تأخره عنه فى الإخراج؛ لأصالته وشرفه؛ لأن غالبه غذاء للناس، والنبات لاحتياج سائر الحيوان إليه .

﴿وجناتٍ أَلْفافًا﴾ أى جنات يتفكه بها الإنسان، وهى تطلق على النخل والشجر الكثيف الذى تلتف أغصانه، والجنة فى الأصل هى السترة من مصدر جنّه : إذا ستره، وأُخّرت الجنات عن الحبّ والنبات؛ لانعدام الحاجة الضرورية إلى الفواكه .

وفى هذه الآيات دليل على البعث، فإن اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث، وكذا إخراج الحبّ والنبات من الأرض الميتة يعاينه الناس كل حين .

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾
أفواجًا﴾ أى فصل الله بين الخلق، بين السعداء والأشقياء، كان ذلك فى علمه وتقديره والميقات: الموعد المحدد الذى لا يتقدم ولا يتأخر قيد أنملة، ويوم الفصل هو اليوم الذى ينفخ فيه فى الصور، ليشعر بزيادة تفخيمه وتهويله. والنافخ فيه هو إسرافيل عليه السلام.

والمعنى: يوم ينفخ فى الصور للبعث فتتصل الأرواح بالأجسام، وترجع إليها الحياة، فتبعثون من قبوركم، فتأتون سراعاً فى غير مهلة، تأتون أفواجاً وجماعات من الناس يهرعون إلى الداعى؛ لينال كل ما يستحق من الثواب والعقاب.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

عبر بالفعل الماضى؛ لتحقق وقوع الفعل، أى شقت السماء من هيبة الله بعد أن كانت لا شقوق فيها ولا فطور، فكانت ذات أبواب كثيرة لتنزل منها الملائكة نزولًا غير معتاد. وسيرت الجبال فطارت فى الهواء بعد قلعها من مقرها فصارت مثل السراب، أى كلا شىء؛ لتفرق أجزائها.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ المرصاد: اسم للمكان الذى يرصد فيه، ويرقب خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها.

﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ الطاغى: من طغى

فى دينه بالكفر، وفى دنياه بالظلم، وهو فى كلتا الحالتين متجاوز للحد فى العصيان، ومآبا: مرجعاً يرجعون إليه لامحالة، والمراد هنا المشركون؛ لكون اعتقادهم باطلاً، أو لم يعتقدوا شيئاً أصلا، «لابثين فيها أحقابا» اللبث: أن يستقر فى المكان ولا يغادره والأحقاب: جمع حقب وهو ثمانون سنة، وأصل الحقب: الترادف والتتابع، ومنه الحديث «فأحقبها على ناقة» أى أردفها على حقيبة الرحل. وهو كناية عن التأبيد، أى يمكثون فيها أبداً مخلدين، كقوله تعالى: ﴿ يريدون أنْ يَخرجوا من النار وما همْ بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ .

ومعنى لا يذوقون، لا يحسون، فاستعارة الذوق للحس؛ لأن أصل الذوق وجود الطعم، والمراد بالبرد: ما ينفس عنهم حرّ جهنم، وإلّا فإنهم يذوقون فيها برد الزمهرير، فالمراد لا يذوقون فيها برداً ينتفع به ويميلون إليه، يقولون: برد الله عيشك، أى طيّبه، والمراد بالشراب، ما يسكن عطشهم، والحميم: الماء الحار الذى اشتد حره والغسّاق: ما يسيل من جلود أهل النار ويقطر من صديدهم وقيحهم، يقول الزجاج: لا يذوقون فيها برد ريح، ولا برد ظل، ولا برد نوم، فجعل البرد، برد كل شىء له راحة. وإلّا حميماً، الاستثناء هنا بمعنى لكن، أى يذوقون فى جهنم الحميم والغساق بالاضافة إلى ما قبله من أنواع العذاب، وعن ابن مسعود: الغساق لون من ألوان العذاب، وهو البرد الشديد، حتى إن أهل النار إذا ألقوا فيها سألوا

الله أن يعذبهم فى النار ألف سنة ، فذلك أهون عليهم من عذاب الزمهرير يوماً واحداً .

وكل ما يصيبهم من العذاب جزاء وفاقا لأعمالهم وأخلاقهم ، وعبر بالمصدر (وفاقا) كأن الجزاء نفس الوفاق ؛ لأنهم أتوا بمعصية عظيمة وهى الكفر ، فعوقبوا عقاباً عظيماً وهو التعذيب بالنار ، فكما أنه لاذنب أعظم من الشرك ، فلا جزاء أقوى من التعذيب بالنار ، فجزاء سيئة سيئة مثلها ، فتوافقا .

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ أى كانوا ينكرون الآخرة ولا يخافون أن يحاسبوا بأعمالهم ، فأقدموا على المنكرات ، ولم يرغبوا فى الطاعات ، ويفسر الرجاء هنا بالخوف ؛ لأن الحساب من أصعب الأمور على الإنسان ، والشيء الصعب لا يقال فيه إنه يرجى بل يقال : إنه يخاف ويخشى .

وكذبوا بآياتنا الناطقة على ألسنة الرسل تكذيباً مفرطاً ، مصرّين على الكفر وفنون المعاصى ، فعوقبوا بأشد العقاب ، وحفظنا أعمالهم وضبطناها حتى لا يفوت منها شيء ، وقدم «كل شيء» على الفعل للاهتمام بشأنها ، وكتاباً توكيد لأحصيناه من غير لفظه ؛ لأن الإحصاء والكتابة من واد واحد ، إذ هما يتشاركان فى الضبط .

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ فكفرهم سبب لحسابهم ،

وكفرهم سبب لتكذيبهم فاستحقوا عذاباً فوق عذاب ، والالتفات هنا من الغائب ﴿لا يرجون حساباً وكذبوا﴾ إلى المخاطب ﴿فلن نزيدكم إلا عذابا﴾ ينبىء عن التشديد فى التهديد ومواجهتهم بما يستحقون من العذاب ، وذلك أشد وطأة على النفس ، وقد روى عن النبى ﷺ «أن هذه الآية أشد ما فى القرآن على أهل النار» لأن فيها اليأس من الخروج من النار ، وهى غير متناهية ، فى العدد والمدة .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ شرع فى بيان محاسن أحوال المؤمنين ، بعد ما فرغ من بيان سوء أحوال الكافرين ، هؤلاء المؤمنين الذين يتقون الكفر وسائر القبائح من أعمال الكفرة لهم فوز عظيم ، وقدم «للمتقين» لاختصاصهم دون غيرهم بهذا الفوز .

وقد يتبادر إلى الذهن هذا السؤال : إن الخلاص من الهلاك ، أهم من الظفر باللذات ، فلم أهمل الأهم ، وذكر غير الأهم؟

قلنا : إن الخلاص من الهلاك لا يستلزم الفوز بالنعيم واللذات ، بخلاف الفوز بالنعيم ، فإنه يستلزم الخلاص من الهلاك ، فكان ذكره أولى .

والحدائق : جمع حديقة ، وهى الروضة ذات الأشجار ، أو البستان المحاط بسور وفيه النخل والثمار .

والأعناب : جمع عنب ، وذكر الثمرة دون الشجرة وهى الكرْم ؛ لأن زيادة الشرف فى الثمرة لا فى الشجرة .

والكواعب : جمع كاعب ، وهى الصبيّة التى ظهر ثديها واستدار ، وصار كالكعب فى النتوء .

والأتراب : المتقاربات فى السن والميلاد ، تشبيهاً لهن بالترائب التى هى ضلوع الصدر فى التساوى والتماثل ، والمراد أنهن بالغات ونساء مكتملات فى الحسن واللطافة ، والصلاح للمعاشرة ، بحيث لا يكنّ فى سنّ الصغر فتضعف شهوتهن ، ولا فى سن الكبر فتنكسر شهوتهن ، ولكن رواء الشباب يجرى فى عروقهن .

﴿**وَكَأْسًا دِهَاقًا**﴾ أى مملوء بالخمر والنشوة ، يقال : أدهق الحوض ودهقه : ملأه .

لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

أى لا يسمع المتقون فى هذه الحدائق كلاماً لغوا لا فائدة فيه ، ولا يكذب بعضهم بعضا حتى يسمعوا شيئاً من ذلك ، كحال أهل الدنيا فى مجالسهم خاصة عند تناولهم الشراب . وقد هيأ الله للمتقين هذه المجالس الطيبة ؛ تفضلاً منه وإحساناً إليهم ؛ إذ لا يجب عليه شىء تجاه أحد ، فجزاء المؤمنين من قبيل الفضل ، وجزاء الكافرين من قبيل العدل .

و ﴿عطاءً حسابًا﴾ أى عطاء كافياً على حسب أعمالهم ، وعطاء

الله لا حدّ له ولا نهاية . وفى بعض كتب التفسير : كأساً دهاقاً : مملوءة من شراب المحبة وخمر المعرفة ، لا يسمعون فيها لغوًا من الهواجس النفسانية ، ولا كذابا من الوساوس الشيطانية ، جزاء من ربك وفضلًا كاملاً كافياً من غير عمل .

رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

أى رب كل شيء وخالقه ومالكه ، مفيض الجود على كل موجود بحسب حكمته ، فلا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم ، فالمملوك لا يستحق على مالكه شيئاً ، وذلك لتفرد الله بالعظمة والكبرياء ، وتوحده فى ملكه بالأمر والنهى والخطاب .

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ قدم الروح وأخر الملائكة، للعموم بعد الخصوص ، والظاهر أن الروح من جنس الملائكة ، لكنه أعظم منهم خلْقاً ورتبة وشرفاً ، كالسلطان مع أمرائه وجنده ورعاياه .

وتفسير الروح بجبريل ضعيف – وإن كان مشتهراً بكونه روح القدس ، والروح الأمين – لأن الملائكة كلهم روحانيون ، ولا يتكلم أحد منهم فى حضرة الذات العلية ؛ تهويلاً ليوم البعث ، وإنما يتحدث فقط من أذن له الرحمن وقال كلمة الحق من كلمة التوحيد ، وكلمة الشهادة دون غيره من الكافرين ، وكرر كلمة الرحمن دون ذكر ضميره ؛ للإيذان بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة ؛ إذ ليس لأحد حق على الله تعالى .

ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ ذلك اليوم العظيم الذى يقوم الروح والملائكة مصطفين غير قادرين على التكلم إلا بإذن من الله ، هذا اليوم ثابت متحقق لا محالة من غير صارف يثنيه ، ولكنهم لا يبصرون به لاشتغالهم بنفوسهم وأهوائهم . فمن شاء اتخذ إلى ربه رجوعاً من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الآخرة إلى رب الدنيا والآخرة .

إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ الخطاب لمشركى العرب وكفار قريش ؛ لأنهم أنكروا البعث ، والعذاب القريب هو عذاب الآخرة وقربه لتحقق إتيانه ، وهو أمر قريب وممكن بالنسبة إلى الله تعالى ، وإن كانوا يرونه بعيداً غير ممكن ، فعندئذ يرونه قريباً لقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أى يوم ينظر المرء العذاب الكائن ، ويشاهد نتيجة عمله وما قدمه من خير أو شر . (والمرء) يطلق على المؤمن والكافر ، وعندئذ يتحسر الكافر على أعماله الشريرة فيتمنى أن لم يخلق فى الدنيا ، ولم يكلف بالعمل ، وأما مؤمنو الجنّ فلهم ثواب وعقاب ، فيكون مؤمنهم مع مؤمنى الإنس فى الجنة ، ويكون كفارهم مع كفار الإنس فى النار ، ونعيمهم وعذابهم بما يلائم شأنهم .

روى أُبيّ بن كعب رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « من قرأ عما يتساءلون سقاه الله برد الشراب يوم القيامة » .

ويروى أبو بكر رضى الله عنه : قال : قلت يارسول الله : لقد أسرع إليك الشيب ، قال : شيبتنى هود وأخواتها ، وعدّ منها عم يتساءلون .

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١﴾ النازعات : جمع نازعة ، أى طائفة من الملائكة نازعة ، فأنث صفة الملائكة باعتبار كونهم طائفة ، ثم جمعت فصارت نازعات ، وإلا فقد كان الظاهر أن يقال : والنازعين ، وكذا الأمر فى الناشطات .

والنزع : جذب الشيء من مقرّه بشدة ، وغرْقا من الغرق : وهو الرسوب فى الماء ، أو فى أعماق الشيء حسناً أو قبيحًا .

أقسم الله بطوائف الملائكة التى تنزع أرواح الكفار من أجسادهم ، وتغرق وتشتد فى نزعها ، فتنزعها من الأنامل والأظفار ، ومن تحت كل شعرة ، كما يسلخ جلد الحيوان وهو حيّ ، فإذا نزعت نفس الكافر تأخذها الزبانية وتعذبها فى القبر عذاباً روحياً ، فإذا قامت القيامة انضم العذاب الجسمانى إلى العذاب الروحانى ، فصار العذاب فوق الطاقة لا يحتمل .

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢﴾ النشط : جذب الشيء من مقره برفق ولين ، وهو قسَم آخر بطوائف الملائكة التى تنشط وتخرج أرواح المؤمنين من أبدانهم فى لين ورفق ، كما تنشط الشعرة من العجين ، وكما تنسلّ القطرة من السقاء ، فملائكة الرحمة تجذب أرواح المؤمنين من أطراف بنانهم ، ورءوس أصابعهم ، ولكنهم لا يحسون بالألم كما يحس

الكافر ، فالميت المؤمن يرى الملائكة حينئذ على صورة أعماله الحسنة ، فإذا أخذته الملائكة لفّته فى حرير الجنة .

فإن قيل : قد ثبت أن النبى ﷺ قبضت روحه بشيء من الشدة حتى قال : لاإله إلا الله ، إن للموت سكرات ، اللهم أعنّى على سكرات الموت ، وكان يدخل يده الشريفة فى قدح الماء ثم يمسح به وجهه المنير ، فلما رأته ابنته فاطمة على هذه الحال ، قال : واكرب أبتاه !! فقال لها عليه السلام : ليس على أبيك كرب بعد الآن ، فإذا كانت هذه حال النبى عليه السلام حين انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، فما وجه ما ذكر من الرفق واللين حين يقبض المؤمن ؟

ويجاب عن ذلك بعدة أمور منها :

إن شفافية روح الرسول تجعله يحس بالألم أكثر من غيره .

إن الله ابتلاه بهذا الكرب حتى يدعو لأمته أن يخفف الله عنهم ويجعل الموت سهلاً يسيراً .

وفيه أيضاً تسلية لأمة محمد ، إذا وقع لأحد منهم شيء من ذلك الكرب عند الموت .

وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ السبح المرّ السريع فى الماء أو فى الهواء.
أقسم الله سبحانه بالملائكة التى تسرع فى مضيها ، فتنزل مسرعة من السماء إلى الأرض كأنهم يسبحون فى الماء .

فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ السبق : كناية عن الإسراع هنا؛ لأن السبق والتقدم من لوازم الإسراع .

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ أى الملائكة المكلفون بتدبير الأمور الدنيوية والأخروية للعباد، والمقسم عليه محذوف تقديره «لتبعثنّ».

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ المراد بالراجفة القيامة وسميت راجفة؛ لأن الأجرام الساكنة كالجبال والأرض ترجف وتضطرب وتتزلزل من هول ذلك اليوم، وهو تعبير مجازى، إذ أن هذه الأجرام ترجف بسببها، ثم تجيء بعدها الرادفة وهى النفخة الثانية التى تأتى بعد النفخة الأولى وهى الراجفة.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ نكّر «قلوب» إرادة للتكثير، أى قلوب كثيرة، أو للتخصيص بالوصف، أى قلوب عاصية فى هذا اليوم واجفة شديدة القلق والاضطراب؛ لسوء أعمالهم وقبح فعالهم. والوجيف: شدة اضطراب القلب وقلقه من الخوف والوجل، وليس المراد بواجفة، العموم؛ بل بعضها مثل قلوب الكافرين، أما أهل الإيمان فهم مطمئنون. وأضاف الأبصار إلى ضمير القلوب، والمراد أصحابها مجاز حيث عبر بالجزء وأراد الكل، فالقلوب لاأبصار لها، وإنما أضاف الأبصار إليها؛ لأنها محل الخوف والقلق. فالأبصار خاشعة ذليلة بسبب إعراض الله عنها، وأسند الخشوع إلى الأبصار؛ لأن أثره يظهر فيها.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾ أى أن منكرى البعث والمكذبين للرسول عليه السلام يقولون متعجبين: هل نعود إلى الحياة بعد الموت؟! فالحافرة: المراد

بها الحياة ، والدنيا فى الحقيقة ليست حافرة ، وإنما الحافر أصحابها ، كما تقول تجارة رابحة ، فالتجارة لا تربح ، وإنما يربح أصحابها ، وسميت الدنيا حافرة ، مع أنها محفورة ، من الحفر ، وهو ترك الأثر فيها بالعمل الطيب أو بالعمل الردىء .

وكيف يمكن أن نعود إلى الدنيا مرة أخرى بعد أن صرنا عظاماً بالية ، فذلك أبعد ما يكون ، « والنخر » البلى ، ونخرة أبلغ من ناخرة ؛ لما فيها من المبالغة ، وإن كانت ناخرة تتفق ورءوس الآيات .

قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) عبر القرآن فى الآيات السابقة بالمضارع ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ ﴾ وعبر هنا بالماضى : « قالوا تلك » ليفهم منه أن صدور هذا الإنكار ليس بطريق الاستمرار ، مثل كفرهم السابق ، أى قالوا ذلك بطريق الاستهزاء ، وعبر أيضاً باسم الإشارة « تلك » المفيد للبعد ، ولم يقل « هذه » لتفيد بعد البعث كما هو فى اعتقادهم . « والكرة » الرجوع ، أى رجعة ذات خسران ، أو خاسر أصحابها ، فالكرّة ليست خاسرة وإنما هم الخاسرون لتكذيبهم بها .

فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) أى لا تحسبوا تلك الكرّة صعبة على الله ، فإنها سهلة هينة فى قدرته ، فإنما هى حاصلة بصيحة واحدة لا تثنّى ولا تكرّر ، يسمعونها وهم فى أعماق الأرض ، وإذا المفاجأة تبرز لهم لتؤكد حدوث ما أنكروه .

والساهرة : الأرض المستوية البيضاء ، وسميت ساهرة من قولهم : عين ساهرة جارية الماء ، أى أن بياض الأرض يدل على خلوها من الماء والكلأ ، ومثل هذا الوصف يكون فى الأرض التى يكتنفها السراب ، فشبه جريان السراب فيها بجريان الماء عليها ، وعبر بالساهرة أى جريان الماء على طريقة المجاز والاستعارة .

وقيل : سميت ساهرة ؛ لأن ساكنها لا ينام خوف الهلاك .

أو هى جهنم لأن أهلها لا يذوقون فيها طعم النوم .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ طُوًى ﴾ هذا كلام مستأنف ورد لتسلية الرسول ﷺ لأن قومه كذبوه ، وسوف يصيبهم مثل ما أصاب فرعون وملأه ، قيل : هل أتاك حديث موسى قبل ذلك ؟ أم أنا أخبرك به ؟ والرسول عليه السلام لم يعلم بحديث موسى ، ولم يأته بعد ، وإلا ما حزن على تكذيب قومه له ، وإنكارهم للبعث ، واستهزائهم به ، فأراد الله سبحانه أن يسلّى رسوله عن سلوك المشركين نحوه . فهل أتاك يا محمد حديث الله حين نادى موسى بالوادى الطاهر الجدير بتنزيهه عن كل ما يشوب ، حتى يليق بجلال الله حين يخاطب كليمه . والوادى هو المكان المنخفض بين جبلين ، وإن كان أصله الموضع الذى يسيل فيه الماء . ووصف الوادى بـ« طوى » لانطواء الموجودات كلها من أجسام ونفوس تحته .

اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ الطغيان : مجاوزة الحد ، فجاوز الحد حين طغى على الله فكفر به ، وطغى على الخلق فتكبر عليهم واستعبدهم ، وقل له يا موسى : هل لك يا فرعون رغبة أن تتطهر من دنس الكفر وعتوّ الطغيان ، وأرشدك إلى معرفة الله ، فإنك إذا عرفت جلال الله خشيته ؛ إذ الخشية لا تكون إلا بعد المعرفة ، وانظر هنا إلى كيفية خطاب موسى لفرعون ، لم يكن على طريق الأمر والقهر ؛ بل عن طريق العرض والتلطف فى القول حتى يتطامن ويتنازل عن عتوه وكبره ، فخاطبه بالاستفهام « هل لك إلى أن تزكى » ولم يقل لك على سبيل الأمر مثلا : تطهرْ ، واخش الله .

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ من قلب العصا حيَّة .

فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فكذب فرعون موسى ، وسمى معجزته سحراً من غير أن يتأملها ، وعصى الله بالتمرد بعد ما علم صحة الأمر ، واجترأ على إنكار وجود رب العالمين ، ويجوز أن يراد : وعصى موسى فيما أمر به وصدر عنه .

ثم أدبر وتولى عن الطاعة ، واجتهد ساعياً فى معارضة معجزة النبى موسى عناداً وتمرداً ، وليس اعتقاداً بأنه يمكن أن يعارضها .

فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ أى فجمع السحرة أو جميع الناس من سحرة وغيرهم ، ونادى بنفسه وقال وهو

مزهو بسلطته : أنا ربكم الأعلى ولا رب فوق ، فأنا أعلى من كل من يلى شئونكم ويدبر أموركم .

وهنا مسألة يحسن التعرض لها وهى : ما الحكمة فى أن إبليس قد لعن ولم يدع الربوبية ، وفرعون قد ادعى الربوبية ولم يلعن كما لعن إبليس ؟

قلنا إن نية إبليس شر من نية البشر جميعاً ، فهو أول من سن الخلاف والمعصية قولاً وفعلاً ونيّة ، ثم تبعه بعض الخلق فى ذلك ، وجاروه فى وسوسته . ثم إن إبليس واجه حضرة الرب بمخالفته ، أما بقية الخلق فقد واجهوا الأنبياء ولم يواجهوا الرب . وقد اعترف العصاة بذنوبهم ، أما إبليس فلم يعترف ولم يتضرع ، فحقت عليه اللعنة إلى يوم الدين .

فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ النكال : التنكيل ، وهو التعذيب ، وهو الإحراق فى الآخرة ، والإغراق فى الدنيا . وأضاف النكال إلى الآخرة والأولى على سبيل المجاز ؛ لأنه واقع فيها . ومن ثم فإن فرعون قد نازع الحق بصلفه وأنانيته ، فقهر وقذف فى النار مهاناً ، يقول الله فى حديثه القدسى : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحدا منها ، قذفته فى النار » .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ أى اعتباراً عظيماً وعظة كبيرة لمن يخشى الله فلا يتمرد عليه ، ويوقر نبيه فلا يعتدى عليه بالقول

أو بالفعل خوفاً من نزول العقاب ، والعاقل من اتعظ بغيره .

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ ثم وجه الخطاب لأهل مكة المنكرين للبعث ، وجهه موبّخا إياهم على اعتقادهم صعوبة البعث ، فهل إعادة حياتهم بعد موتهم أصعب فى تقديركم من خلق السماء مادة ، ونظرة واحدة إلى السماء تدل على عظمها والتحام أجزائها ، واحتوائها على العجائب التى تحار فيها العقول ، والاستفهام هنا تقريرى ، أى لستم أشد صعوبة فى إعادة خلقكم من بناء السماء ورفعها ، .. فكيف تنكرون على الله ذلك؟! وانظر أيضاً إلى استعمال كلمة «بناها» فى موضع «سقفها» فالسماء سقف مرفوع ، والبناء يستعمل فى أسفل البنيان لا فى أعلاه ؛ لأن كلمة البناء أبعد فى تطرق الخلل إلى المبنى ، وإنما إذا كان ثمة خلل فلا يكون إلا فى السقف ، وهو شيء يعرفه أهل الخبرة فى البناء والمعمار .

ثم وصف السماء بأنها رفيعة المعمار ، عالية السمت والمقدار ، وامتداد الشيء إن أخذ من أسفله إلى أعلاه سمى سمْكاً ، وإن أخذ بالعكس سمى عمقاً . كما وصفها بأنها مستوية لا ترى فيها من شقوق أو تفاوت أو فطور ، بل هى حسنة الشكل تتزين بالمصابيح ، وتتوهج بالشمس نهاراً ، وبالقمر ليلاً .

وجعل ليلها مظلماً ذاهب النور ، وأبرز نهارها ، فقال بدلاً

من ذلك «وأخرج ضحاها» أى أخرج ضوء الشمس، وعبر عنه بالضحى؛ لأن الضوء يحل فى هذا الوقت على سبيل المجاز، وأخر ذكر النور عن الظلمة، ليشعر الناس أنه تام فى إنعامه عليهم، وأكمل فى إحسانه إليهم.

يقول بعض العارفين: الليل ذكر، والنهار أنثى، فلما تغشّى الليل النهار حملت، فولدت، فظهرت الكائنات، واستخراج الليل من النهار كاستخراج حواء من آدم.

وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ أى بسط الأرض ومهدها لسكنى أهلها وتقلبهم فى أقطارها، يروى أن الله خلق الأرض قبل خلق السماء من غير أن يدحوها، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، ثم فجر الماء من الأرض عيوناً، وأجرى أنهارا، وأنبت فيها الكلأ الذى تتقوت منه الكائنات، وأقام الجبال وثبت بها الأرض حتى لا تميد ولا تهوى، صنع الله ذلك حتى يتنعم الناس والأنعام.

والمرعى: الكلأ، وأطلق هنا على كل ما يأكله الإنسان والحيوان على سبيل المجاز.

والأنعام: جمع نَعَم بفتحتين وهى الماشية، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل، ولكنه أريد به العموم فى الإبل والبقر والغنم من الضأن والماعز.

وقوله : ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ يعدّ من جوامع الكلم ، حيث يدل الماء والمرعى على جميع ماأخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للمخلوقات من العشب والشجر ، والحبّ والثمر ، والملح والنار ؛ لأن النار من الشجر الأخضر ، والملح من الماء . وفى قوله تعالى : ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ توبيخ للمخاطبين المنكرين للبعث وإلحاقهم بالأنعام فى التمتع بالدنيا ، والذهول عن الآخرة .

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ قال فى الصحاح : كل شىء كثر حتى علا وغلب فقد طمّ ، أى إذا جاء وقت وقوع الداهية العظمى التى تعلو على سائر الدواهى وتغلبها ، أى إذا جاء يوم القيامة يشاهد الخلق من الآيات الخارجة عن العادة ما ينسى معه كل جليل وحقير ، عظيم ومهين .

قال فى سورة النازعات : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّآمَّةُ﴾ وقال فى سورة عبس ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّآخَّةُ﴾ ٣٣ لأن الطامة : النفخة الأولى للإهلاك ، فهى قبل الصّخّ المراد به المنفخة النفخة الثانية .

وعلى الرغم من أن الإنسان ينسى كل شىء من هول الموقف إلا أنه يتذكر ما كان من عمله : خير أو شر بأن يشاهده مدوناً فى صحيفة أعماله ، وكان قد نسيه من فرط الغفلة وهول الموقف ، وعندئذ تبدو الجحيم ظاهرة بيّنة لا تخفى على أحد ، بعد أن كانوا يسمعون بها.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾

هذا جواب للكلام السابق ، أى فأما من عتا وتمرد عن الطاعة ، وجاوز الحد فى العصيان ، واختار الفانية عن الباقية وانهمك فى ملذاتها ومتعها ، ولم يستعد للحياة الآخرة بالإيمان والطاعة ، فإن الجحيم هى لا غيرها مأواه ، فلا يخرج منه أبداً ، كما يخرج المؤمن العاصى ، فالكلام فى حق الكافر ، وإن كان فيه عبرة وعظة لأضاف الناس أجمعين .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أى خاف القيام بين يدى الله للحساب ، والمقام اسم مكان بمعنى موضع القيام ، أى المكان الذى عينه الله لأن يقوم فيه العباد للحساب والجزاء ، ونهى النفس عن الميل إلى الهوى بحكم طبيعته البشرية ، فلم يعتدّ بمتع الدنيا ، ولم يغترّ بزخرفها ، ولم يأبه لزينتها ، والهوى : حب الشهوات وقد فسر القرآن ذلك حين قال : ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ آل عمران ١٤ فحصرها فى سبع شهوات ، وقد أدرجها فى أمرين حين قال : ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ الحديد ٢٠ ، ثم أدرجها فى أمر واحد وهو (الهوى) فى الآية ، فالهوى جامع لأنواع الشهوات ، فمن تخلص من الهوى ، فقد تخلص من جميع القيود . ومن يفعل ذلك فإن الجنة لا غيرها هى مأواه ، والمراد بهذا

الحصر المؤمن الطائع لا المؤمن العاصى، وإلا فلا معنى للحصر أو التخصيص .

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ أى يسالونك يا محمد متى يقيم الله الساعة ويثبتها، يقولون ذلك استهزاء برسول الله، فيرد الله سؤالهم منكراً لهم، بأن وقت الساعة وقيامها مما استأثر بعلمه علام الغيوب، وليس لأحد كائناً من كان أن يعلم وقتها، فلأى شىء يسألونك عنها، وإنما أنت يا محمد وظيفتك الامتثال لأوامر الله، وتبليغها للناس، وليس معرفة قيام الساعة، فهذا خارج عن حدود رسالتك .

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ أى كأن المنكرين من الكفار لم يدخل فى روعهم بعد الإنذار بها إلا تلك المدة اليسيرة: عشية يوم أو ضحاها، آخر يوم أو أوّله، لا يوماً كاملاً. ولم يقل: لم يلبثوا إلا عشية أو ضحى دون إضافة، حتى لا يظن أحد أن العشية من يوم، والضحى من يوم آخر، فيتوهم استمرار اللبث، وأما إذا قيل:

﴿لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ لم يحتمل هذا الاستمرار البتّة. ولكن أنّى لأصحاب هذه النفوس الغليظة أن يفهموا ذلك فلا ينكرونه .

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ **تجهم وأعرض محمد عليه** السلام ، وسبب هذا التجهم والإعراض أن جاءه ابن أم مكتوم المؤذن الثانى لرسول الله ﷺ وكان فاقد البصر ، غير مفتقد البصيرة ، يقول عليه السلام : « إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم » ، وكان من المهاجرين الأولين ، مات بالمدينة ، وقيل شهيداً بالقادسية . وأم مكتوم اسم أم أبيه ، كما فى الكشاف ، يقول بعض المفسرين : وهذا وهم ، فقد نص ابن عبد البر وغيره أنها أمه ، واسمها عاتكة بنت عامر بن مخزوم .

وروى أن ابن أم مكتوم أتى رسول الله ﷺ وذلك فى مكة وعنده أشراف قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم غيرهم بإسلامهم ، إذ أن من عادة الناس اتباع كبرائهم ، فقال ابن مكتوم للرسول ﷺ : علمنى مما علمك الله انتفع به ، وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغل الرسول بأكابر القوم ، فكره الرسول مقاطعة كلامه ، أن يشتغل به عنهم ، فعبس وأعرض عنه ، فرجع ابن مكتوم حزيناً خائفاً أن يكون عبوسه وإعراضه عنه إنما هو لشىء أنكره الله منه ، فنزلت ، وكان بعدها يكرمه الرسول ويقربه منه

ويقول له إذا رآه : مرْحَباً بمن عاتبنى فيه ربى ، ويقول له : هل لك من حاجة ؟. ويقال إن رسول الله ﷺ لم يغتم فى عمره كغمه حين نزلت سورة عبس ؛ لأن فيها عتاباً مراً شديداً على مثله .

وكان ما فعله الرسول من باب ترك الأوْلى ، فلا يعد ذنباً ؛ لأن اجتهاده عليه السلام كان فى طلب الأولى .

وقد يقال إن وصف ابن أم مكتوم بالعمى فيه تحقير لشأنه ، مما ينافى تعظيمه حين عوتب الرسول لإعراضه عنه .

نقول هذا الوصف بالعمى كان لابد منه ، وذلك لبيان عذره فى الإقدام على قطع كلام الرسول مع علية القوم ، وإيذاناً باستحقاقه الرحمة واللين وليس الغلظة والإعراض ، وإما لزيادة الإنكار حيث تولى عنه ، وهو لا يليق بمن وصفه الله بأنه على خلق عظيم .

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ شدد الله العتاب على الرسول ، أى وأىّ شيء يجعلك داريا وعالماً بحاله حتى تعرض عنه ، وفى الآية التفات جميل حيث نزلت السورة بلفظ الإخبار عن الغائب فقال : عبس وتولّى ، ثم أقبل عليه فقال : ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ مع أنه يعلم أن محمداً لم يعرض عن ابن أم مكتوم إلا رغبة فى الخير ، ودخول أشراف مكة فى الإسلام ، فيتبعهم كثير من الناس فى اعتناق الإسلام . ففى هذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب تأنيس له بعد الوحشة التى اعترته من إعراضه عن ابن أم مكتوم ؛ لأن ظاهر ما فعله الرسول

يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء ، وقلة المبالاة بانكسار قلوبهم ، وترك الأفضل مما لا يليق بمقام النبوة ، فعاتبه الله بأن ذلك الأعمى مما يرجى معه تطهير قلبه وتزكية فؤاده .

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ أى يتعظ بحديثك فتنفعه موعظتك ، إن لم يبلغ درجة التزكى والتطهر الكامل ، وحتى إن لم يرج تطهيره الكامل فيرجى اتعاظه النافع . فالتزكى فيه تخليةعن الآثام ، والتذكر فيه تحلية ببعض الطاعات .

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ فمن استغنى عن الإيمان فأنت تتعرض له ، وتقبل عليه ، وتهتم بإرشاده وإصلاحه ، وفيه زيادة تنفير له عليه السلام عن مصاحبتهم ، فإن الإقبال على المدبر يسىء إلى شيم الكرام .

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾ أى ليس عليك بأس أو وزر فى ألا يتزكى ذلك المستغنى عن الإسلام فتهتم بأمره ، وتعرض عمن أسلم ، وفى هذا الأمر استهانة لمن أعرض عن الإسلام .

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾

وأما من جاءك مسرعاً طالباً ما عندك من التعاليم الإسلامية ويخشى الله فى تصرفاته فأنت تتشاغل عنه ، ومثلك يا نبىّ الله لا ينبغى أن يتصدى للمستغنى ، ويتلهى عن الفقير الطالب للخير ، وتقديم «له» فى «فأنت له تصدى» و«عنه» فى «فأنت عنه تلهى» تعريض به واختصاص له

بأنك تعلم أن العبرة بالأرواح والأحوال، وليست بالأشباح والأموال . روى أنه عليه السلام ما عبس بعد ذلك فى وجه فقير قط، ولا تصدى لغنى، وكان الفقير فى مجلسه يحترمه كل الاحترام .

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ «كلّا» زجر للنبى عليه السلام لتصديه للمستغنى وإعراضه عن الفقير، قال : لما تلا جبريل هذه الآية على النبى ﷺ تغير وجهه، كأنما ذر عليه الرماد ينتظر ما يحكم الله به عليه، فآيات القرآن موعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها، فمن شاء حفظ القرآن واتعظ به، أو من رغب عنه كما فعله المستغنى، فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره .

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾

صحف : جمع صحيفة، وكل مكتوب عند العرب يسمى صحيفة، صحف مكرمة عند الله لكونها صحف القرآن الكريم، رفيعة القدر والمكانة، أو مرفوعة فى السماء السابعة، منزهة عن لمس أيدى الشياطين لها، وإنما هى بأيدى ملائكة ينتسخون الكتب من اللوح، وفى الكتابة معنى السفر، أى الكشف والتوضيح، والكاتب سافر ؛ لأنه يبين الشيء ويوضحه، ويسمى السفَر سفَرًا ؛ لأنه يسفر ويكشف عن أخلاق المرء، وقالوا هذه اللفظة مختصة بالملائكة لا تكاد تطلق على غيرهم . فهم كرام عند الله بالقرب والشرف من الكرامة، أو متعطفين على المؤمنين يستغفرون لهم، فهو من الكرم

ضد اللؤم ، أبرياء أتقياء مطيعين الله سبحانه ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾﴾ ؟ دعاء عليه بأشنع الدعوات ، فإن القتل من شدائد الأمور وأفظعها ، أو دعاء عليه باللعنة والهلاك الروحى ، وهو أيضاً من أشد العقوبات . فما أشد كفر الإنسان بالله على الرغم من كثرة إحسانه إليه . وهذا الدعاء ورد على أساليب العرب ، وليس من قبيل دعاء العاجز عن الانتقام ممن يسوؤه . وهذا الدعاء يدل على سخط الله العظيم للإنسان الكافر بنعمه ، ولا شك أن السخط يجوز من الله تعالى .

ويجوز أن يكون « ما أكفره » استفهاماً بمعنى التوبيخ ، والمعنى : أىّ شىء حمله على الكفر ، والمراد بالإنسان هو المستغنى عن القرآن ، أو المراد جنس الإنسان الذى ينتظم سلوكه بين العصاة والكافرين . فلماذا يتعالى الإنسان ويترفع ؟

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾ من أى شىء حقير مهين خلقه ؟ من نطفة قذرة خلقه ، فمن كان من أصل مهين كيف يليق به التكبر والتجبر والكفران ، بحق المنعم الذى وهب ذلك الحقير ، هذه الصورة الجميلة الحسنة ، وهيأه لما يصلح له ، ويليق به من الأعضاء والكيفية ، وجعله مستعداً وصالحاً للسعى فى معاشه .

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾

أى سهل مخرج الإنسان من بطن أمه ففتح له فم الرحم، وكان غير مفتوح قبل الولادة ، وقلب من وضعه فجعل رأسه من أسفل ورجليه من أعلى ، وبدون ذلك لا يمكن أن يولد الطفل ولادة طبيعية سهلة ، ثم يسر له سبيل الخير والشر فى الدين، ومكنه من السلوك فيهما، ثم أوقفه على ما هو نافع وضار ، وبعث إليه الأنبياء، ونزل إليه الكتب حتى يستقيم ويهتدى ، ثم قبض روحه عند تمام أجله ، فى قبر يوارى فيه جسده إكراماً لآدميته ، ولم يتركه مطروحاً على وجه الأرض تفترسه السباع ، وتنهشه الطير كسائر الحيوان ، وطابق هنا بين أقبره وأنشره تنبيهاً على كمال قدرة الله وتمام حكمته ، وإذا شاء الله أحياه وبعثه .

ولاحظ هنا وضع «الفاء» فى «أماته فأقبره» ووضع «ثم» فى قوله «ثم إذا شاء أنشره» لم توضع اعتباطاً بحيث يمكن أن تضع أحدهما مكان الآخر ؛ بل وضع كل حرف فى مكانه اللائق به ، فوضع الفاء فى أقبره ؛ لأن دفن الميت يكون بعد موته مباشرة ، وعبر بثم بعد ذلك ؛ لأن النشور يتأخر عن الدفن .

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ لما هنا بمعنى لم للنفى ، وليس فيها معنى التوقع أى لم يقض الإنسان ما أمره الله به من الإيمان والطاعة ولم يعمل بها .

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ شرع الله سبحانه فى تعداد

نعمه المتعلقة ببقاء الإنسان ، كيف دبرناها له ومكناه منها ، ثم يأخذ القرآن فى تفصيل هذه النعم .

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾. أى أنزل المطر الذى يحتاج إليه الإنسان ؛ لأن الماء سبب لحدوث الطعام ، وشققنا بعد ذلك الأرض فأخرجنا منها النبات ، ولا يزال يتزايد ويتسع إلى أن يتكامل نموّه وينعقد حبّه ، ثم ذكر العنب ؛ لأن إخراج العنب وإنباته قد يخلو عن شق الأرض ، وكذا فى أمثاله ، وأفرد العنب بالذكر من بين الثمار ؛ لأنه فاكهة وطعام ، فاكهة يتلذذ بها ، وطعام يتغذى به . والقضب ، هو كل ما يؤكل رطباً كالبطيخ والخيار والباذنجان والقثّاء ، والزيتون والمراد به شجرته ، وخصه بالذكر لكثرة فوائده خصوصاً للعرب ، فإنه ينتفعون به أكلاً ودهاناً وإضاءة وتطهّرا ، فإنه يجعل فى الصابون . وكذا النخل فهو من أنفع الأغذية ، والحدائق والبساتين الغُلْب ، أى العظام تقول : رجل أغلب ، أى غليظ العنق ، فوصف الحدائق بالغلب لتكاثفها وتكاثر أشجارها ، وفى هذا الوصف استعارة حيث نقل صفة الرقبة الغليظة إلى صفة النخيل عند كثافتها ، أو ذات أشجار غلاظ ، فهى مجاز مرسل حيث إن الأشجاز الغلاظ حالّة فى الحدائق الغلب ، وفاكهة كثيرة غير ماذكر من العنب والرطب من الفواكه ؛ لأن العطف يقتضى المغايرة ، وربما كان العنب والرطب

غذاء ؛ لأنه يؤكل فلا يتناوله اسم الفاكهة من كل وجه ، فهو فاكهة من وجه ، وغذاء من وجه آخر ، بخلاف أن تكون الفاكهة من كل وجه ، فصح عطفها عليه .

والأبّ : الفاكهة اليابسة تؤبّ وتعدّ للشتاء ، أو المرعى الذى يقصد جزّه للدواب ، كل هذه الفاكهة وهذا الأبّ لأجل إمتاعكم وإمتاع دوابكم ، فبعض هذه النعم طعام لكم ، وبعضها علف لدوابكم ، ولفظ المتاع يشعر بسرعة زوال هذه النعم وقال هنا « متاع لكم ولأنعامكم » فقدم ذكر الناس على الأنعام ؛ لأن الآية وردت فى طعام الإنسان : « فلينظر الإنسان إلى طعامه » من الحب والفاكهة ثم أعقبه بذكر عَلَفِ الأنعام وهو « الأبّ » التبن ، ومن أجل ذلك كانت المناسبة تقتضى ذكر تقديم الناس على الأنعام .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۝٣٣ ﴾ بعد أن فرغ الله من ذكر خلْقهم ومعاشهم شرع فى ذكر أحوال بعثهم وحشرهم وحسابهم . والصاخة هى الداهية العظيمة الذى يصخ لها الناس أى يستمعون إليها ، فوصف النفخة بالصخ أى الاستماع مجازاً ، مع أن الصخ صفة الناس المستمعين . وقيل : مأخوذة من صخّه بالحجر ، أى صكّه ، فتكون الصاخة حقيقة فى النفخة وليست مجازاً .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ أى يعرض الإنسان عن أحب

الناس وأقربهم لديه فلا يصاحبهم ولا يسأل عنهم ، لاشتغاله بحال نفسه ، ولعلمه أنهم لايغنون عنه شيئاً . وأخّر الأبناء مع أنهم أحب الناس إلى الرجل ، فتدرج من الحبيب إلى الحبيب . فالأبوين أقرب من الأخ ، وتعلق القلب بالصاحبة والولد أشد من تعلقه بالأبوين ، وهذه الآية تشمل النساء والرجال معاً ، حيث يجرى كلام العرب فيدخل النساء مع الرجال كثيراً . وإذا ظهر للإنسان عجزهم وقلة حيلتهم اعتمد على ربه ، ولم يعتمد على أحد سواه ، إذ لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، ويستريح حين يفوّض أمره إلى الله .

وعبر بكلمة (شأن) لفداحة الأمر فى هذا الوقت ؛ لأنها لا تقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور ، أى لكل واحد من المذكورين شغل شاغل ، وخطب هائل يصرفه عن الاهتمام بغيره . وكلمة (يغنيه) لها دلالتها ، حيث إن الهمّ قد ملأ صدره ، ولم يبق فيه متسع لشيء آخر ، فصار شبيهاً بالغنىّ ، فى أنه ملك شيئاً كثيراً ، وفى الخبر أن عائشة رضى الله عنها قالت : يارسول الله ، كيف يحشر الناس ؟ قال حفاة عراة ، قالت : وكيف تحشر النساء ؟ قال : قال : حفاة عراة ، قالت عائشة : واسوأتاه ، النساء مع الرجال حفاة عراة !! فقرأ رسول الله عليه السلام هذه الآية ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ أى وجوه مضيئة متهللة ، من اسفر الصبح إذا أضاء ، وفى الحديث : « من كثرت صلاته بالليل ، حسن وجهه بالنهار » ضاحكة بما تشير من النعيم المقيم

والبهجة الدائمة، فهى فرحة لما علمت من فوزها وسعادتها، بعد فراغها من مشقة الحساب، يقول أحد الصوفية، سفرة؛ لإبيضاضها فى الدنيا بالتزكية والتصفية وزوال شوائبها، ضاحكة؛ لأنها بكت أيام دنياها فى الله حتى عميت عن رؤية ما سوى الله، مستبشرة لأمنها فى الآخرة بعد خوفها فى الدنيا .

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ والغبرة من الغبار والسواد، أو غبرة الفراق والذل، يعلوها السواد ويغشاها ظلام كالدخان، ولا ترى العين ما هو أقبح من اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه، كما إذا أغبر وجه الزنجى. وذلك بسبب كذبها وفجورها، هؤلاء قد وصفهم الله بسواد الوجه وغبرته بسبب كفرهم بالله، وفجورهم فى حقوق العباد، والفجور يستعمل فى الذنب الكبير، ويقع من المؤمن العاصى، ولكن ينبغى أن نخاف منه ونحتاط له؛ لأن كبائر الذنب تجر إلى الكفر، كما أن صغائر الذنوب تجرّ إلى الكبائر .

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ أى لُفت، من كورت العمامة إذا لففتها بضم بعض أجزائها إلى بعض لتكون مستديرة .

والمراد بذلك رفعها وإزالتها عن مقرها، فالتكوير كناية عن رفعها، ولا مانع من إرادة المعنى الحقيقى وهو اللف مع المعنى المجازى وهو الرفع والإزالة، .

وأما لفّ ضوئها المنبسط فى الآفاق، المنتشر فى الآفاق، المنتشر فى الأقطار، يكون التعبير مجازيًا؛ لأن الضوء لا يتصور فيه اللف .

وقيل معنى كورت : ألقيت من فلكها على وجه الأرض، يقول الطيبى : تكوير الشمس والقمر يوم القيامة؛ ليعذب بهما أهل النار لا سيما من يعبدون الأنوار . ويقول الفنارى فى تفسيره : إن السماء إذا طويت واحدة بعد واحدة يرمى بكواكبها فى النار .

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢﴾ النجوم جمع نجم وهو الكوكب، وانكدرت : تناثرت وتساقطت، فإن السماء تمطر يومئذ نجومها، فلا يبقى فى السماء نجم إلا وقع على سطح الأرض .

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ السير : المضى فى الأرض، والمراد رفعت عن وجه الأرض، وأبعدت عن أماكنها .

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ جمع عشراء كنفاس ونفساء. والعشراء: هى الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر ، إلى أن تضع لتمام السنة ، وهى أنفس أموال العرب ، ومعظم أسباب معاشهم .

والمعنى : وإذا العشار تركت مهملة غير منظور إليها ، مع كونها محبوبة مرغوبة عند أهلها ، لاشتغالهم بأنفسهم ، وذلك عند مجيء مقدمات الساعة ، فإن الناس حينئذ يتركون الأموال والأملاك ، ويشتغلون بأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ .

وهذه الآية جاءت على وجه التمثيل ، لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشراء ، وإنما المراد بيان هول يوم القيامة ، بحيث لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها وأهملها واشتغل بنفسه .

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ من حيوانات البر التى جمعت من كل جانب ، واختلط بعضها ببعض ، وبالناس فى نفرة مع بعضها ومع الناس .

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ أى أحميت ، وتفجّر بعضها فى بعض حتى تعود بحراً واحداً مختلطاً عذبها بمالحها ، فتعم الأرض كلها ، وفى ذلك إشارة للوعيد بتسعير النار وتسجير البحار .

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ كل نفس سواء أكانت من الإنس أم من الجن اقترنت بمن يشاكلها فى الخير أو فى الشر ، فيضم الصالح إلى الصالح ، والفاجر إلى الفاجر .

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ المدفونة حية ، وكانت العرب تئد البنات مخافة الفقر ، أو الاسترقاق ، أو لحوق العار بهم من أجلهن .

قال فى الكشاف : « كان الرجل إذا ولدت له بنت ، فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ، فترعى له الإبل فى البادية ، وإن أراد قتلها تركها حتى تبلغ ست سنوات ، فيقول لأمها طيّبيها وزيّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر لها بئراً فى الصحراء ، فيقول لها انظرى فى البئر ، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب ، حتى يستوى البئر بالأرض » . هذه الموءودة حية يسألها الله يومئذ بنفسه ؛ إظهاراً للعدالة .

﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتْ ۝٩﴾ ؟ بأى ذنب قتلها أبوها حية ، وتوجيه السؤال إليها لتسليتها وإظهار كمال السخط لوائدها ، ومن أجل ذلك يسقطه الله عن درجة الخطاب ، فلا يوجه السؤال إليه مبالغة فى تبكيته . وهذا نوع من التعريض بالوائد ، ولذا كان التعبير بالغائب وليس بالمخاطب فلم يقل : بأى ذنب قتلْتَ ؟ فالكلام على جهة الإخبار ، وليس على سبيل الحكاية .

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ أى صحف الأعمال فإنها تطوى عند الموت ، وتنشر –أى تفتح– عند الحساب ، فيتسلمها بيمينه أو بشماله ، وتحصى عليه جميع أعماله ، فيقول ﴿مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ الكهف ٤٩ .

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١﴾ كما يكشط الإهاب عن الذبيحة، فيظهر ماوراءها وهو الجنة والعرش، استعار الكشط للإزالة، كما تقول مجازاً: انكشط روعه: زال.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢﴾ أى أوقدت للكافرين إيقاداً شديداً، لا حدوثها ابتداء لتحرقهم إحراقاً أبدياً، سعرها غضب الله، وخطايا المذنبين.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣﴾ أى قربت من المتقين ليدخلوها، كقوله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ ق ٣١ وعن الحسن رحمه الله: أنهم يقربون منها، لا أنها تزول عن موضعها، فالمراد من التقريب: القلب قصداً للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ الأحقاف ٢٠ وإنما النار هى التى تعرض عليهم، فعكس قصداً إلى التحسير والتحقير، ويحتمل التقريب المعنوى، وهو جعل أهلها مستحقين لدخولها مكرمين فيها.

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ أى علمت كل نفس من النفوس ما أحضرته، فالمراد العموم، وأما قولهم إن النكرة لا تعم فى سياق الإثبات؛ بل تكون للإفراد، فهذا غير مطرد والمراد: ما أحضرت أعمالها من الخير والشر. وإسناد الحضور إلى النفس مع أنها لا تحضر إلا بأمر الله، على سبيل المجاز العقلى لأنها سبب فى الحضور وفى كل أعمالها. ويجوز أن تكون علمت نفس كناية عن مجازاتها؛

من حيث إن العلم لازم للمجازاة . وفى الحديث : « العبد بين مخافتين : عمر قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليتزود العبد لنفسه من نفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالله ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا إلا الجنة أو النار » .

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥﴾ أى ليس الأمر كما تزعمون أيها الكفرة من أن القرآن سحر أو شعر ، ثم قال أقسم بالخنس ، فالنفى هنا ليس مسلطاً على القسم ، والخنس جمع خانس وهو المتأخر ، وأصل الخنوس الرجوع إلى الخلف ، والخنّاس الشيطان ؛ لأنه يرجع عن الوسوسة إذا ذكر الله ، فإذا غفل عاد إلى الوسوسة .

والمعنى أقسم بالكواكب الرواجع وهى ما عدا الشمس والقمر ، من المريخ ، وزحل ، وعطارد ، والزهرة ، والمشترى ، فخنوسها رجوعها .

﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦﴾ جمع جارية وهى السائرة ، لأنها تجرى فى أفلاكها وترجع حتى تختفى تحت ضوء الشمس ، والكنس : جمع كانس ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها .

وقيل جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون ، وتكنس بالليل ، أى تطلع فى أماكنها كالوحوش فى كنسها .

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ إذا عسعس ،

إذا أدبر ظلامه وأقبل الصباح ، أى أضاء وأشرق ، وأراد بالتنفس ، طلوع الصبح وانتشاره بحيث يزول معه ظلام الليل ، وفى التنفس استعارة تصريحية حيث أراد بها الانبساط والانتشار . أو أنها استعارة مكنية حيث جعل الصبح متنفساً شأنه شأنه الإنسان .

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾ الضمير فى «إنه» للقرآن ، ولم يذكره للعلم به ، وأقسم بالليل والصباح لما فيهما من ظهور كمال الحكمة وجلال القدرة ، والمراد بالرسول الكريم جبريل عليه السلام ، ولا يجوز أن يكون المراد به النبى عليه السلام ، لما ذكره بعد من القوة والقدرة ، ثم إن هذه الآية وردت فى معرض الرد والتكذيب للكفار ، الذين ادعوا أن القرآن كلام محمد وليس كلام الله . وأسند فى الآية القول إلى جبريل ، لمجيئه به من عند الله ، فهو مجاز عقلى علاقته السببية .

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾ أى أن جبريل عليه السلام شديد القوى ، وله القدرة ، الكاملة على ما يكلف به دون عجز أو ضعف ، وجبريل مكانته عند الله رفيعة ، ومن مكانته عند الله أنه تعالى جعله تالياً له فى قوله تعالى : ﴿ فإن الله هو مولاه وجبريل ﴾ وعبر بذى العرش ولم يقل عند الله للدلالة على عظم الله فى القلوب وإدخال المهابة فى النفوس .

﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾ مطاع بين الملائكة المقربين ينفذون

ما يأمر به ، ويرجعون إلى رأيه لعلمهم بمنزلته عند الله . فطاعة جبريل فريضة على أهل السموات ، كما أن طاعة محمد فريضة على أهل الأرض . فثَم : أى هناك فى السموات .

﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ نفى عن محمد الجنون ، فقد جربوا عقله فوجدوه أكمل الخلق ، ولقبوه بالأمين الصادق .

وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ الواو هنا للقسم ، أى أقسم بالله أن محمداً رسول الله أبصر جبريل ، والمراد بالأفق حيث تطلع الشمس ، وأسند الإبانة إلى الأفق وليس إلى طلوع الشمس على سبيل المجاز ؛ لأن الأفق مكان طلوعها .

روى أن رسول الله ﷺ سأل جبريل أن يتراءى له فى صورته التى خلقه الله عليها ، فأذن له ، فأتاه على صورته وهو فى جبل حراء فى أوائل البعثة ، فرآه الرسول قد ملأ الآفاق بصدره ، رجله فى الأرض ورأسه فى السماء ، جناح له بالمشرق ، وجناح له بالمغرب ، فغشى عليه ، فتحول جبريل فى صورة بنى آدم وضمه إلى نفسه ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه ، فقيل لرسول الله ما رأيناك منذ بعثت أحسن منك اليوم ، فقال عليه السلام : جاءنى جبريل فى صورته ، فعلق بى هذا من حسنه ، وكانت رؤية محمد لجبريل بصورته التى جبل عليها من خصائص الرسول محمد عليه السلام .

وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ أى أن الرسول ﷺ لا يبخل

بالوحي فيخفي بعضه ولا يبلغه ، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه الهدايا والكرامات . وقرىء « بظنين » أي بمتهم ، فالرسول ثقة في جميع ما يوحي إليه ، لا ينطق عن الهوى ، واختار أبو عبيدة هذه القراءة ؛ لأن الكفار لم يبخلوه ، وإنما اتهموه ، فنفي التهمة أولى من نفي البخل .

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥)﴾ وليس القرآن من أقوال بعض الشياطين الذين يسترقون السمع ، ووصف الشيطان بالرجيم ؛ لأنه بمعنى المرميّ بالشهب ، وفي ذلك نفي لأقوالهم إن القرآن كهانة أو سحر أو شعر ، والله يقول ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ الشعراء ٢١٠ .

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦)﴾ من طريق الحق إلى طريق الباطل ، فقد ضللتم فيما سلكتم من أمر القرآن ، فأي طريق تسلكون أكثر أمناً من هذه الطريقة التي وضحت استقامتها ، فشبه حال الكافرين المنكرين بحال من يترك الطريق المستقيم ويميل عنه إلى غير المسلك البيّن فقال لهم : (أين تذهبون) إنكاراً لتعسفهم ، وإظهاراً لضلالهم .

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧)﴾ أي القرآن ما هو إلا موعظة وتذكير لهم ، للإنس والجن على حد سواء فهم جميعاً يفتقرون إلى الموعظة والتذكير .

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾ أيها المكلفون بالطاعة والإيمان والبعد عن الآثام .

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾. فالخطاب في قوله لمن شاء منكم، يدل على أن منهم من يشاء الاستقامة ومنهم من لا يشاء، فالخطاب هنا لمن يشاء منهم، ويروى أن أبا جهل لما سمع لمن شاء منكم أن يستقيم قال: الأمر إلينا: إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم، فنزل قوله تعالى: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ فأفعال العباد ثبوتاً ونفياً موقوفة الحصول على مشيئة الله رب العالمين ومالك الخلق أجمعين. وفى الحديث القدسي:

«يا ابن آدم تريد وأريد، فتتعب فيما تريد، ولا يكون إلا ما أريد». فلا نشاء إلا مشيئته، ولا نعمل إلا بقوته، ولا نطيع إلا بفضله، ولا نعصى إلا بخذلانه، فماذا يبقى لنا، ولماذا نفتخر بأعمالنا، وليس لنا منها شيء إلا بتوفيقه ورضاه..



سورة الانفطار

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ أى انشقت لنزول الملائكة ، أو لهيبة الله تعالى وقال الكاشانى : «أى انفطرت سماء الروح الحيوانى بانفراجها عن الروح الإنسانى ، وزوالها بالموت .

وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ أى تساقطت عن مواضعها ، كما تتساقط اللآلىء إذا انقطع السلك .

وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ أى فتح بعضها إلى بعض بفعل زلزلة الأرض وتصدعها ، وصارت البحار كلها والأنهار جميعها بحراً واحداً .

وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ أى قلب ترابها وأخرج ما فى بطنها من معادن وأموات تقول : بعثرت المتاع : جعلت أسفله أعلاه ، وقيل لسورة براءة : المبعثرة ؛ لأنها بعثرت أسرار المنافقين .

فالله سبحانه ذكر أولا تغيير حال السماء والكواكب ، ثم ثنى بتغيير كل ما علا وجه الأرض ، بنفاذ البحار بعضها إلى بعض ، ثم بتغيير باطن الأرض وبعثرة قبورها ، واستخراج ما فى جوفها من أموات .

عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ أى كل نفس أراد العموم ، ولكنه أفرد لبيان حقارة النفس وقلتها وضعفها عن منفعة

ذاتها ، أى علمت ما قدمت فى حياتها من أعمال خيِّرة أو شريرة ، وأخرت من سنّة حسنة أو سيئة ، أو ما قدمت من معصية وأخرت من طاعة . وهذا التعبير كناية عن أن الله يجازى كل أحد بفعله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . والمقصود من ذلك الزجر عن المعصية ، والترغيب فى الطاعة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ قال الإمام السهيلى : يريد أمية بن خلف ، وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة ، أو الأسود ابن كلدة ، الجحمى حيث قصد رسول الله ﷺ فى بطحاء مكة وضربه على يافوخه ، فأخذه رسول الله ﷺ وضربه على الأرض ، فقال له : يا محمد : الأمان الأمان ، منى الجفاء ، ومنك الكرم ، فإنى لا أوذيك أبداً ، فتركه الرسول ﷺ ، ولكن الأصح أن كلمة « الإنسان » فى الآية تعم جميع العصاة ، وليست خاصة بالكافرين أو واحد منهم و« ما غرّك » ما إستفهامية أريد بها الاستهجان والتوبيخ ، أى أىّ شىء خدعك وجرأك على عصيان ربك وأمّنك من عقابه ، والله شاهد على أعمالك كلها ، فعفو الله وكرمه لا يصلح أن يكون مداراً لإغواء الشيطان ؛ بل يقتضى الخوف والحذر من مخالفته وعصيانه ، وخاصة إذا انضم إلى صفة عفوه صفة قهره كما فى قوله تعالى : ﴿ نبّئْ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ الحجر ٤٩ ، ٥٠ .

وذكر صفة الكريم دون غيرها من صفاته من الجبار والقهار

والمنتقم ، ليحبب إليه التوبة والعمل الصالح الذى يمحو السيئة .

وفى الحديث : «إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه وستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم يارب ، حتى قرره بذنبه ، ورأى فى نفسه أنه هلك ، قال : سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم» .

ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾

فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ والخلق صفة ثانية لله جل وعلا ؛ لأن الخلق عطاء وإيجاد بعد العدم (وسواك) صيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت فيه ، فأعضاؤك سوية سليمة معدة لمنافعها ، فالبطش لليد ، والمشى للقدم ، والتكلم للسان ، والرؤية للعين ، والسمع للأذن وهكذا ، وعدلك فى أحسن تقويم فلم يجعل أحد اليدين أو الرجلين أو الأذنين أطول من الأخرى ، أو إحدى اليدين أو الرجلين سوداء والأخرى بيضاء ، فالإنسان متساوق فى هيئته وقوامه ، أو المعنى ركبوا فى أى صورة من الصور المختلفة فى الحسن والقبح والطول والقصر ، والذكورة والأنوثة ، وغير ذلك من الصفات التى خلعها الله على الإنسان .

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ كلا ردع عن المعاصى والتفاخر بها ، وهنا يقتضى السياق تقدير جملة أى وأنتم لا ترتدعون عن ذلك ، بل تجترئون على ما هو أعظم من ذلك ، فتكذبون بالدين والجزاء والبعث .

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾ أى وإن عليكم أيها المكلفون من قبلنا ملائكة تحفظ أعمالكم وتدونها ، وهم كرام حيث يسارعون إلى تدوين الحسنات ، ويتوقفون عن كتابة السيئات من أجل التوبة والاستغفار ، فيكتبون الذنب والاستغفار معاً .

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ يعلمون كل شيء عنكم ، لملازمتهم لكم ، وعدم افتراقهم عنكم ، فكل ما تفعلون قليلا أو كثيراً يعلمونه ، وفى ذلك من الإنذار والتهويل ما فيه للعصاة المذنبين ، والتبشير والنعيم للصالحين الأبرار .

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤﴾ فالأبرار الذى بروا فى أعمالهم وصدقوا فى إيمانهم وأقوالهم ، لفى نعيم دائم ، والتنوين هنا للتفخيم .

والفجار : جمع فاجر ، والفجور : شق ستر الديانة – لفى نار جهنم ، والتنوين هنا للتهويل والجملتان : إن الأبرار وما عطفت عليه ، بيان لما قبله ، فالغاية من الكتابة إما النعيم وإما الجحيم .

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۝١٥﴾ هذه الجملة جواب عن سؤال نشأ عن تهويل ، كأنه قيل ما حالهم فيها ؟ يصلونها يوم الدين ، وهو ما يسمى عند البلاغيين بشبه كمال الاتصال ولم يصف النعيم بما يلائمه كما وصف الجحيم ؛ لأن الأشياء تنكشف بأضدادها ، فإذا وصف الجحيم بشدة حرها ، وعظم لهيبها ، علم منه وصف الجنة المقابلة لها ، بنعيم هوائها ، ورقة نسيمها .

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ والله يصف الفجار بأنهم لا يغيبون عن الجحيم طرفة عين ، فالمراد دوام نفى الغياب عنها ، فكانوا يجدون سمومها فى قبورهم ، كما قال النبى عليه السلام : « القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران » .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾﴾ أىْ أىّ شىء جعلك دارياً وعالما ما يوم الدين ، أى أىّ شىء عجيب هو الهول والفظاعة ، بحيث أن يدرك أحد كنهه .

﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ تكرار لإفادة التوكيد وزيادة التخويف ، وتفخيم لشأن ذلك اليوم ، وعبر هنا بالظاهر بدلاً من الضمير ، فلم يقل وما أدراك ما هو ؟ لإبراز شدة هوله وفخامته .

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ كأنه قيل : يوم لا تملك أى نفس لأى نفس أخرى شيئاً من الأشياء ، فلا تدفع عنها مضرة ، أو تجلب لها نفعاً ، والأمر يومئذ لله وحده ، فإن أمور أهل المحشر كلها لله لا يتصرف فيها أحد سواه ، فالناس فى هذه الآونة ضعفاء لا ينفعهم المال ولا الأولاد ، ولا الشفعاء والأعوان كحالهم فى الدنيا ، بل ينفعهم الإيمان والبر والطاعة ، وفيه تهديد لأرباب الدعاوى ومن يلجىء إلى الظلم ، وفيه أيضاً تنبيه على عظيم بطشه وقوة سلطانه .

سورة المطففين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ (١) ويل لك : عبارة عن استحقاق المخاطب لنزول البلاء ، والمراد بهذه الكلمة : الهلاك ، أو العذاب الأليم ، أو الشر الشديد .

« والمطففون » الباخسون حقوق الناس فى المكيال والميزان ، وروى أن النبى عليه السلام قدم المدينة ، وكان أهلها من أبخس الناس كيلاً ، فنزلت ، فقرأها عليهم ، وقال : خمس بخمس ، ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر » فعملوا بموجبها ، وأحسنوا الكيل ، فهم أوفى الناس كيلاً إلى اليوم .

ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ (٢) الاكتيال : الأخذ بالكيل ، واكتالوا على الناس ، أى من الناس ؛ لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء ، والمراد أنهم يأخذون الكيل وافياً وافراً ، والأصح أن «على» جاءت بمعناها الحقيقى ، فهى تفيد الاستعلاء والتسلط ، لأن الذين يطففون الكيل إذا أخذوا من الناس أخذوا أكثر من حقهم ، وإذا أعطوا للناس أعطوا أقل من حقهم ، فمعنى الظلم والتعسف هنا

واضح ، بخلاف ما إذا كانت بمعنى « من » فهى لا تفيد الظلم فى الأخذ أو النقص فى الإعطاء .

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أى وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم المبيع ، ينقصونهم حقوقهم ، مع أن وضع الكيل والوزن إنما هو لاستحقاق العدل وأخذ الحق ، وفى الكشاف للزمخشرى « كأنّ المطففين لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين ؛ لتمكنهم بذلك من الاستيفاء والسرقة ؛ لأنه يهزون المكيال ويحتالون فى الملء ، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس فى النوعين جميعاً » وفى ذلك إشارة إلى المقصرين فى الطاعة والعبادة ، الطالبين كمال الرأفة والرحمة ، الذين يستوفون من الله مكيال أرزاقهم بالتمام ، ويكيلونه مكيال الطاعة والعبادة بالنقص والخسران ، وذلك هو الخسران المبين .

وانظر أيضاً إلى هذا التعبير « وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » ولم يقل وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم ، فحذف اللام هنا لغرض بلاغى يستدعيه المعنى ؛ وذلك لأن اللام تفيد معنى الاستحقاق ، وهم بخسوهم حقوقهم ، فحذف اللام هنا يفيد أنهم لم يعطوهم ما يستحقون ؛ بل منعوهم حقوقهم .

أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ الهمزة هنا للاستفهام الانكارى ، والمعنى ألا يظن أولئك المطففون الموصوفون

بالخسران أنهم سوف يبعثون ليوم شديد الكرب ، تعظم فيه الأهوال ، ويحاسبون فيه على مقدار الخردلة ، إن من يظن ذلك حتى ولو كان ظناً ضعيفاً لا يتجاسر على ارتكاب تلك القبائح فكيف بمن تيقن حدوث البعث والحساب .

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ أى لمحاسبة رب العالمين لهم ، ومن ثم ينكشف تطفيفهم ، ومجازاتهم على هذا التطفيف ، حتى وإن كان هذا التطفيف يتعلق بشىء حقير ، لكنه ذنب كبير ، ويقال : كل من نقص حق الله من زكاة وصلاة وصوم ، فهو داخل تحت هذا الوعيد .

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ كلا : ردع عما كانوا عليه من التطفيف ، والغفلة عن البعث والحساب . و« سجين » علم لكتاب جامع هو ديوان الشر ، دونت فيه أعمال الشياطين والكفرة والفسقة من الثقلين ، والسجين مبالغة فى المسجون ، فكتاب الفجار ومن جملتهم المطففون لفى ذلك الديوان الذى رصدت فيه قبائح أعمالهم .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ الاستفهام هنا للتهويل والمبالغة فى أمره ، بحيث لا يدرك كنهه أحد ، فهو كتاب مسطور واضح الكتابة بحيث يراه كل من يطلع عليه بلا إمعان أو تأويل .

يقول الكاشانى : « إن كتاب الفجار الذى دونت فيه أعمال المرتكبين للرذائل، الخارجين عن حد الاعتدال المتفق عليها عقلاً وشرعاً لفى سجين ، سجن أهلها فى أماكن ضيقة مظلمة يزحفون على بطونهم كالسلاحف والحيات والعقارب ، وفسره بأنه كتاب مرقوم ، أى بهيئات رذائلهم وشرورهم .

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾ أى ويل عظيم للمكذبين بالحق وآياته ، وهم أصحاب النفوس المريضة التى أقبلت على الدنياوأعرضوا عن دين الإسلام ، فكل يجازى على حسب دينه ، فمن لا دين له فجزاؤه الهلاك العظيم ، ومن له دين فجزاؤه حسن الجزاء ، ولن يكذب بهذا اليوم إلا كل معتد متجاوز صور الاعتبار ، كالوليد ابن المغيرة والنضر بن الحارث ونحوهما ، ولا ريب أن كل من يقترف ذلك ، ويتعدى حدود الله ، كثير الإثم ، منهمك فى اللذات الفانية التى شغلته عما وراءها من النعيم المقيم ، وحملته على إنكارها .

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ أى إذا تتلى عليه آياتنا الناطقة بصدق البعث والحساب قال من فرط جهله وإعراضه عن الحق ما هى إلا حكايات الأولين وأخبارهم الزائفة . والأساطير جمع أسطورة وهى الحديث الذى لا نظام له .

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ كلا ردع

للمكذبين وتكذيبهم ، والرين : صدأ يعلو الشيء الجلى ويرسخ فى الطبع ، وران ذنبه على قلبه ، غلب ، وكل ما غلبك رانك ، والمعنى : ليس فى آياتنا مايقال عنها هذه الادعاءات الباطلة ، بل غلب على قلوبهم وطباعهم ما اكتسبوه من الآثام والمعاصى والكفر حتى صارت صدئة ، فحال صدؤها بينهم وبين معرفة الحق ، وفى الخبر عن الرسول : « إن العبد كلما أذنب ذنباً حصل فى قلبه نكتة سوداء حتى يسودّ قلبه » وقال أيضاً : « إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد ، وإن جلاءها ذكر الله وتلاوة القرآن » .

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ كلا ردع عن أعمالهم التى تغشى قلوبهم وطباعهم فتبعدها عن الحق ، وتحول بينهم وبين رؤية الله تعالى ، فلم يبق محل لنور التجلى ، بخلاف المؤمنين فإنهم يرونه تعالى ، فهم لكسبهم الحسنات صفت مرآة قلوبهم ، فصاروا مستعدين لانعكاس نور التجلى فى قلوبهم ، سئل مالك بن أنس عن هذه الآية فقال : « لما حجب أعداؤه فلم يرونه ، لابد أن يتجلى لأوليائه حتى يروه » .

وعن الشافعى رضى الله عنه : « لما حجب قوماً بالسخط ، دل على أن قوماً يرونه بالرضى » وقال الزمخشرى فى الكشاف : فى الآية تمثيل ، فقد مثل الله تعالى استخفافه بالكافرين وإهانتهم – كما لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم – مثل ذلك باحتجابهم عنه تحقيراً لشأنهم وبغضاً

لأعمالهم، ويقول بعض المفسرين جعْل الآية تمثيلا عدول عن الظاهر، وهو واضح، فإن ظاهر قولهم هو محجوب عن الأمير يفيد أنه ممنوع من رؤيته، وهو أكبر أسباب الإهانة.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦﴾ وفوق حرمانهم من نعيم رؤية الله تعالى، فهم داخلوا النار مباشروا حرها، دون أن يحميهم عن ذلك حائل، وثم هنا تفيد الترقى والتدرج من حال عقوبة إلى حال من العقوبة أشد، فإن الاصطلاء بالجحيم أشد من الحجاب والإهانة والحرمان من الرحمة؛ لأنها تتضمن العذاب الحسى والمعنوى معا، بخلاف حجب الرؤية، فإنها لا تتضمن سوى العذاب المعنوى فقط.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾ ثم يقال لهم توبيخاً وتقريعاً من جهة الزبانية، وبنى الفعل للمجهول، وطوى ذكر الزبانية؛ لأن المقصود التركيز على الفعل لا الفاعل، وفى ذلك من عموم القائل أيضاً، فيشتد به الخوف أكثر، يشتد من العذاب الذى كنتم فى الدنيا تكذبون وقوعه، وقدم «به» على «تكذبون» لا للحصر بل لرعاية الفواصل القرآنية.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ أى إن أعمالهم الطيبة مكتوبة فى ديوان جامع لجميع أعمالهم، وسمى بذلك، بسبب الارتفاع إلى أعالى الدرجات فى الجنة، ويقال إنه مرفوع فى السماء السابعة.

ولما كان عليون علماً منقولاً من الجمع حكم عليه بالمفرد وهو كتاب مرقوم ، تشهده الملائكة المقربون عند الله ، تشهد الكتاب وتحفظه من الضياع .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ أى السعداء الذين صفت قلوبهم عن درن الآثام ، وصفهم الله بثلاث صفات هى :

﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ أى على الأسرة ينظرون فى الحجال ، وهى جمع حجَلة بالتحريك بيت العروس يزين بالثياب والستور ينظرون ما شاء لهم النظر من النعيم والجنة ، أو على الكفار الذين يعذبون فى النار ، وهذه الحجال لشفافيتها لا تحجب الأبصار عن الرؤية ، فحذف المفعول هنا للتعميم ، وقدم « على الأرائك » رعاية الفواصل القرآنية .

وثانى الأوصاف : تعرف أنهم أهل نعمة بسبب ما ترى فى وجوههم من البهجة والاستبشار ، وفضل التعبير بتعرف فى وجوههم على « ترى فى وجوههم » لأن تعرف تستعمل فى الأشياء المعنوية الباطنة ، بخلاف « ترى » فإنها تستعمل فى الأشياء الحسية الظاهرة .

وثالث الأوصاف : يسقون من رحيق مختوم ، الرحيق : صافى الخمر ، وعن أبى الدرداء الرحيق : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شربهم ، وهو طيب الرائحة ، لا تتغير نكهته ، ولا يورث الصداع ، والمعنى يسقون فى الجنة من شراب خالص لا غش فيه ولا ما يكرهه الطبع .

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ ختمت أوانيه وأكوابه بالمسك، أى فكأنها صنعت من المسك بدلاً من الطين، وهو تمثيل لكمال نفاسته، إذ الشىء النفيس يختم لا سيما إذ كان ما يختم به من المسك لا من الطين، ومعنى ختامه مسك؛ أن الشارب إذا رفع فاه من آخر شربة وجد رائحة كرائحة المسك، وليس فى أول شربة فقط؛ إذ العكارة تترسب فى آخر الزجاجة أو الوعاء، فشراب الآخرة يختلف عن شراب الدنيا.

وفى ذلك الرحيق الطيب فليرغب الراغبون ويتنافسوا فيه، فالأمر هنا للحث والترغيب، وأصل التنافس، التغالب فى الشىء النفيس المحبوب كأن كل واحد يود أن يستأثر به.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ صفة أخرى لرحيق، وتسنيم: عين تجرى من جنة عدن، والتسنيم معناه الرفعة، إشارة إلى علو مكانته؛ لأنه أرفع شراب فى الجنة، أو لأنها تأتيهم من فوق فيكون من علو المكان، «وعيناً» منصوب على الاختصاص أى أخص هذه العين لشراب المقربين، قرباً معنوياً روحانياً يشربون ماءها صرفاً، بينما تمزج لسائر أهل الجنة وهم أصحاب اليمين، فالباء زائدة أى يشربها المقربون، أو بمعنى من، أى يشرب منها المقربون، وهم أفضل وأقرب إلى الله من الأبرار. ولعل المراد هنا: أن المقربين يشربون من عين التسنيم خالصة، وذلك لإخلاصهم

فى أعمالهم فى الدنيا ، فالله يجازيهم بمثل أعمالهم لا ينقصهم شيئاً فهم لا يشربون منها ؛ بل يشربون بها .

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ والمراد بالذين أجرموا رؤساء قريش وأكابر المشركين كأبى جهل والوليد ابن المغيرة ، والعاص بن وائل وأمثالهم . هؤلاء المجرمون كانوا فى الدنيا يستهزئون بفقراء الدنيا المؤمنين إيماناً صادقاً كعمار بن ياسر وصهيب الرومى ، وبلال بن رباح ، وخبّاب بن الأرت وغيرهم ، وقدم « من الذين آمنوا » على يضحكون رعاية للفواصل .

وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ أى إذا مر الفقراء من المؤمنين بالمشركين وهم فى أنديتهم أو العكس ، غمز بعضهم بعضاً ساخرين منهم ، والتغامز : تفاعل من الغمز وهو الإشارة بالجفن والحاجب ، ويكون بمعنى العيب أيضاً .

وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ أى انقلبوا من مجالسهم إلى أهل بيتهم وأصحابهم الجهلة المضلين انقلبوا متلذذين بإظهار ما يسوء المؤمنين والسخرية منهم .

وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ أى إذا رأى المجرمون المؤمنين قالوا مشيرين إليهم بالتحقير ، مؤكدين أنهم فى ضلال ، لترك دين آبائهم القديم ، واعتناقهم دين محمد الجديد .

وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ أراد الله أن يسخر من المجرمين

فاستعمل أسلوب التهكم؛ فهل الله أرسل هؤلاء المجرمين ليحفظوا عليهم أمورهم، ويهيمنوا على أعمالهم، وأى نفع لهم فى تتبع أعمال غيرهم، وإنما أمرهم بإصلاح أمور أنفسهم، ولكنهم اجترأوا على المؤمنين وعلى الله؛ لأن الإرسال من وظائف من أرسل من جهته تعالى .

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥﴾ ففى اليوم الآخر تنقلب الأحوال، ويرد المؤمنون على الكفار استهزاءهم، حين يرونهم أذلاء، وقد غشيهم الهوان والصغار بعد العز والكبر، وبعد أن أمضوا حياتهم فى التنعيم والترفيه .

﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ الاستفهام للتقرير، وثوب بمعنى يثوب وعبر بالماضى لتحقق وقوعه، والتثويب بمعنى المجازاة وتستعمل غالباً فى المكافأة بالشر . وإن كانت أحيانا تستعمل فى الخير كقوله تعالى : ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ المائدة ٨٥ .

فالآيات الأخيرة صريحة فى أن ضحك المؤمنين منهم فى الآخرة، إنما هو جزاء ضحك الكافرين منهم فى الدنيا .

وفيه تسلية للمؤمنين بأن الحال سينقلب، ويكون الكفار مضحوكاً عليهم من المؤمنين وفى ذلك تعظيم للمؤمنين ودحر للكافرين، وأن الله ينتقم لأوليائه، نسأل الله السلامة .

سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ أى انفتحت بغمام أبيض يخرج منها ، وفى ذلك الغمام ، الملائكة ينزلون ، وفى أيديهم صحائف الأعمال .

أو فيه ملائكة العذاب ، وكان ذلك أشد وأفظع من حيث مجىء العذاب فى موضع الخير . وقيل : لهول القيامة ، وكيف لا تنشق السماء ، وهى فى قبضة قهره أقل من خردلة .

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ أى استمعت ، ثم انقادت وأذعنت لتأثير قدرته تعالى ، فشبه انقياد السماء وإذعانها بالاستماع الذى لا يتأتى إلا ممن له حياة وإدراك على سبيل الاستعارة كقوله تعالى على لسان السماء والأرض ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ وحقّت : أى هى حقيقة وجديرة بالاستماع والانقياد .

وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ أى بسطت بإزالة جبالها وآكامها ، وتسويتها بحيث صارت كالصحيفة الملساء . وفى الحديث : « إذا كان يوم القيامة مدّ الله الأرض مدّ الأديم ، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه » يعنى لكثرة الخلق فيها .

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ أى لفظت ما فى جوفها من الكنوز والموتى إلى سطحها وهى من المجاز العقلى، وإلا فالإلقاء لله

حقيقة ، وتخلت ، أى أخلت ما فى جوفها غاية الخلو ، فلم يبق فيه شىء ، كأنها تكلفت فى ذلك أقصى جهدها ، كما يقال : تكرّم الكريم ، وترحم الرحيم ، إذا بلغا جهدهما فى الكرم والرحمة وتكلفا فوق ما فى طبعهما .

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾ أى انقادت له فى الالقاء والتخلى وهى حقيقة بذلك ، وذكر الآية مرتين ، دون تكرار ؛ لأن الأول متعلق بالسماء ، والثانى متصل بالأرض . وجواب إذا محذوف ، أى إذا وقعت هذه الأمور ، كان من الأهوال ما تقصر عن بيانه العبارة . وفى التأويلات النجمية ، يشير إلى انشقاق سماء الروح عن غيوم النفس الأمارة ، وانقيادها لفيض ربها من غير إباء أو امتناع ، وإلى بسط أرض النفوس البشرية لأربابها ، وتخليها عن أحكام البشرية .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾
وعبر بالإنسان ليشمل المؤمن والكافر والعاصى ، فالخطاب أراد به العموم ، وهذا أبلغ ؛ لأنه يقوم مقام التنصيص فى النداء على مخاطبة كل واحد بعينه ، كأنه قيل : يا فلان ويا فلان إلى غير ذلك . والكدح : مجاهدة النفس فى العمل . والكدّ : السعى الشديد فى العمل ، وطلب الكسب ، والجَهد : المشقة والتعب ، والمعنى أنك ساع باجتهاد ومشقة إلى لقاء ربّك ، وفى الخبر أنهم قالوا : يا رسول الله ، فيم نكدح وقد جفت الأقلام ومضت المقادير ؟ فقال : « اعملوا ، فكل ميسَّر لما خلق له » . فالإنسان يكدح فى الدنيا ليلاق

جزاء عمله من خير أو شر عقب ذلك لا محالة من غير صارف يصرفه عنه ، ولا مفر له منه .

أو ملاق ربّه فيسرع إلى الموت ، فأنفاس المرء تدنو به إلى أجله ، فهو ملاق ربه بالضرورة .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، عبر بأوتى ماضيا ، والمراد المضارع يؤتى ؛ لتحقق وقوعه . والكتاب هو الصحيفة التى دونت فيها أعماله التى كدح فى كسبها ، والمراد بيمينه أعماله الطيبة التى اكتسبها ، فدونها كاتب اليمين ، والحكمة فى ذلك ؛ أنه المكلف إذا علم أن أعماله تدون عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد ، كان أزجر للمعاصى ؛ لأن العبد إذا طمع فى لطف سيده واعتمد على عفوه لم يبال فى ارتكاب الخطيئة . وهذا الذى يأخذ كتابه بيمينه يحاسب يوم القيامة حساباً سهلاً لا مناقشة فيه ولا اعتراض حتى لا يشق عليه ، كما يناقش أصحاب الشمال ، أو أن الحساب اليسير هو أن يعرف المؤمن ذنوبه ثم يتجاوز عنها .

وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ أى يرجع إلى عشيرته من المؤمنين مبتهجاً بحاله ، لأنه من أهل النجاة .

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ أى : وأما من يؤتى كتابه بشماله كما فى سورة الحاقة ٢٥ – يقول الفنارى فى تفسيره الفاتحة – وهو المنافق فإن

الكافر لا كتاب له ؛ لأن كفره يكفيه فى المؤاخذة فلا حاجة إلى الكتاب ، ثم إنهم ليسوا مكلفين بالفروع . وأما من أوتى كتابه وراء ظهره كما فى هذه السورة ، فهم الذين أوتوا الكتاب فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً ، فإذا كان يوم القيامة قيل له : خذه من وراء ظهرك ، أى من الموضع الذى نبذته فى حياتك الدنيا ، حين ظننت أنك لن تحور . وعندئذ يتمنى لنفسه الثبور والهلاك ، والثبور مشتق من المثابرة على الشيء وهو المواظبة عليه ، وسمى هلاك الآخرة ثبوراً ؛ لأنه لازم لا يزول . ويصلى سعيراً حين يقذف به فى جهنم ويقاسى حرها وعذابها وشدة لهيبها .

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ إنه كان بين أهله وعشيرته مترفاً بطراً مستبشراً ، شأن الكفار والفجار الذين لا يخطر ببالهم أمور الآخرة ، ولا يتفكرون فى عواقب أعمالهم كسنّة الصالحين والمتقين . فظن فى دنياه أنه لن يرجع إلى الله تكذيباً للبعث والحساب ، والحور : الرجوع ، ومنه الحديث « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » أى الرجوع من حالة جميلة إلى حالة قبيحة .

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ أى ليس الأمر كما يظن ، ولكنه عائد إلينا لا محالة ، فربه الذى خلقه بصير بأعماله ، ولا يخفى عليه شيء منها ، فلا بد من الحساب والجزاء ، وفى ذلك زجر لجميع المكلفين عن المعاصى كلها .

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ . الشفق : الحمرة التى تشاهد فى أفق المغرب بعد الغروب ، وبغيابها يخرج وقت المغرب ، ويدخل وقت العشاء عند عامة العلماء .

والشفق مشتق من الشفقة التى هى عبارة عن رقة القلب ، ولا شك أن ضوء الشمس يأخذ فى الرقة والضعف من غيبة الشمس إلى أن يستولى سواد الليل على الآفاق كلها . ويقال : إن الشفق اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند الغروب أى غروب الشمس ، ولا تعارض بينهما .

« الوسق » جمع المتفرق ، أى وأقسم بالليل وما جمعه وستره بظلمته ، فكل ما يجتمع بالليل ، ويأوى إلى مكانه من الدواب والحشرات والهوام والسباع بعد ما كان منتشراً بالنهار ، والقمر ، إذا اجتمع وتم وأصبح بدراً ليلة أربع عشرة .

فالله سبحانه أقسم بالأفلاك وما يعتورها من تغيّر مما يدل على تغير وأحوال الخلق ، فالشفق حالة مغايرة لما قبلها وهو ضوء النهار ، ولما بعدها وهو ظلمة الليل ، والليل وما وسق ، فإنه يدل على حدوث ظلمة بعد نور ، وعلى تغير أحوال الحيوانات من اليقظة إلى النوم ، والقمر إذا اتسق ، أى على كمال القمر بعد أن كان ناقصاً .

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ أى لتلاقُن حالا بعد حال ، كل واحدة منها مطابقة لأختها فى الشدة والفظاعة ، ومنه طابقت النعل

بالنعل . وقيل : الطبق جمع طبقة وهى المرتبة ، وهو الأوفق للركوب المنبىء عن الاعتلاء . أى لتركبن أحوالاً بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أرفع من بعض ، وهى الموت وما يترتب عليه من أحوال . فـ(عن) هنا بمعنى بَعْد ، فصح أن يستعمل فيه «بعد» «وعن» معا ، ويستعمل أحدهما بمعنى الآخر ، فعن تفيد التجاوز ، أى لتركبن طبقاً مجاوزاً لطبق .

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ أى إذا كان حالهم يوم القيامة كما ذكر ، فأى شيء يمنعهم من الإيمان ؟ وفيه إشارة إلى عدم الامتثال إلى أحكام الشريعة ، واتباع الهوى .

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ أىّ مانع لهم فى حال عدم سجودهم وخضوعهم واستكانتهم عند قراءة النبى ﷺ أو أحد صحابته أو واحد من أمته ، وهم أهل العربية ومن كان على اللسان العربى ، ويدرك أساليب البيان يجزم بإعجاز القرآن عند سماعه ، كما يجزم بصدق محمد ورسالته ، فيطيع الأوامر ويجتنب النواهى .

ويجوز أن يراد نفس السجود عن تلاوة آية السجدة ، وعبر بعموم القرآن مجازاً عن ذلك وروى أنه عليه السلام ذات يوم قرأ ﴿واسجد واقترب﴾ العلق ١٩ فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رءوسهم ، وتصفر استهزاء بهم .

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ بالقرآن الناطق بأهوال القيامة ،

ولذلك لا يخضعون عند تلاوته . وقال : بل الذين كفروا ، ولم يقل : بل الذين هم يكذبون ، فوضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر الداعى لتكذيبهم .

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾ بما يضمرونه فى قلوبهم ، ويجمعونه فى صدورهم من الغل والحسد والبغى ، فيجازيهم على ذلك فى الدنيا والآخرة ، واستعار الوعاء وما يوضع فى الوعاء ، لحفظ أعمالهم السيئة ، وما يدخر لهم من أنواع العذاب ، ويقول بعض المفسرين بما يوعون من إغراقهم فى بحر الشهوات الدنيوية ، وإحراقهم بنار العذاب الأخروية .

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾ أى بشر الذين كفروا بعذاب مؤلم غاية الإيلام ، وهو استهزاء بهم وتهكم ؛ لأن البشارة هى الإخبار بالخبر السار واستعملت فى الخبر المؤلم مجازاً .

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٢٥﴾

لكن الذين آمنوا إيماناً صادقاً بتصفية قلوبهم عن الاكدار ، واستجابوا لأوامر الله ونواهيه فأطاعوه ، لهم فى الآخرة أجر وثواب غير مقطوع ؛ بل مستمر دائم ، أو غير ممنون به عليهم ، فإن المنّة تكدر النعمة .

وفى التأويلات النجمية : إلا الذين آمنوا بأرواحهم وقلوبهم ، وعملوا الصالحات من الإعراض عن الدنيا ، والإقبال على الله لهم أجر غير ممنون باكتسابهم ، بل بفضل الله ورحمته .

سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ السماء : كل جرم علوىّ هو سماء ، فيدخل فيه العرش . والبروج : جمع برج ، ومعناه القصر بالفارسية ، والمراد بها البروج الاثنا عشر فى الفلك الأعلى . وشبهت بروج السماء بالقصور التى ينزل فيها الأكابر والأشراف ، لأنها منازل النجوم ومقر الكواكب ، وأسماء البروج : الحمل ، الثور ، الجوزاء ، السرطان ، الأسد ، السنبلة – العذراء – ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدى ، الدلو ، الحوت ، وجعل الله الشهور على عدد هذه الأبراج فقال : ﴿إنّ عدة الشهور عند الله اثناعشر شهرا﴾ التوبة ٣٦ .

ويقال المراد بالبروج : النجوم التى هى منازل القمر ، وهى ثمانية وعشرون نجماً ، ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاها ، فإذا صار القمر فى آخر منازله دقّ وتقوس ، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوماً ، أو ليلة إن كان تسعة وعشرين يوماً . وإطلاق البروج على هذه النجوم مبنى على تشبيهها بالقصور حيث إن القمر ينزل فيها ، ولظهورها أيضاً ؛ لأن البرج ينبىء عن الظهور ويشتمل على المحاسن ، يقال تبرجت المرأة ، أى تشبهت بالبرج فى إظهار المحاسن . وأقسم الله بالبروج لتعلق منافع العباد بها ، وإظهاراً لقدرها وشرفها .

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢﴾ أى يوم القيامة وأقسم الله به لعظمه ومكانته حيث إنه يوم الفصل والجزاء .

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ الشاهد: الحاضر من الشهود، ونكرهما للإبهام فى الوصف، أى وشاهد ومشهود يجلان عن الوصف، حيث يشهد فى ذلك اليوم من الأولين والآخرين، والإنس والجن، والملائكة والأنبياء، وغير ذلك مما يحضر فيه من العجائب.

ويقال: المشهود: يوم عرفة، والشاهد من يحضره من الحاجّ، وأقسم به تعظيماً لأمور الحجّ.

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤﴾ جواب القسم، أى لقد قتل أى أهلك بغضب الله ولعنته فتكون الجملة خبرية لا دعائية، والأظهر أنها دعائية، أى يدعو عليهم باللعن، فالقتل هنا كناية عن اللعن؛ لأن القتل لكونه أغلظ العقوبات لا يقع إلا فى حالة الغضب العظيم، والسخط الشديد، ويوجب الإبعاد عن الخير والرحمة، وهذا هو معنى اللعن. والمعنى: أن الله أقسم بهذه الأشياء ليخبر أن كفار مكة ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود، يريد تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان، وصبرهم على أذى الكفار وتذكيرهم بما جرى لمن سبقهم من العذاب على تمسكهم بإيمانهم، حتى يأنسوا بهم، ويصبروا على ما يلقون من قومهم، وأن هؤلاء الكفار ملعونون كما لعن أسلافهم.

والأخدود: شق مستطيل فى الأرض عميق القرار، وأصحاب الأخدود ثلاثة: هم: أنطيانوس الرومى بالشام، وبختنّصر بفارس،

و نواس بنجران باليمن. فقد شق كل واحد منهم شقاً عظيماً فى الأرض طوله أربعون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً، وملأوه ناراً، وألقوا فيه من لم يرتد عن دينه من المؤمنين، والقرآن إنما نزل فى أهل نجران وذى نواس الحميرى اليهودى، فهم أصحاب الأخدود، وذو نواس اسمه زرعة بن حسان ملك حمير وما حولها، وكانت له غدائر من شعر، أى ذوائب تنوس، أى تضطرب، فسمى ذا نواس.

ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ الأخدود مشتمل على النار فهو بدل اشتمال، والأخدود لا شك يكون مهيباً شديد الهول إذا تلظت فيه النار، والتقدير: النار فيه.

﴿ذات الوقود﴾ وصف لهذه النار بغاية العِظم وارتفاع اللهب، لكثرة ما يوجبه من الحطب؛ إذ لا فائدة لهذا الوصف إذا لم يحمل المعنى على ذلك؛ إذ من المعلوم أن النار لا تخلو من حطب.

إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ الضمير (هم) لأصحاب الأخدود، وقعود: قاعدين حولها فى مكان مشرف عليها من حافات الأخدود، ولفظ (على) مشعر بالاستعلاء، تقول: مررت عليه، تريد مستعلياً بمكان يقرب منه، والمراد قعدوا عند النار، إذ لو قعدوا عليها لاحترقوا، وكان المؤمنون يعرضون على النار، فمن يترك دينه تركوه، ومن كان يصر على إيمانه ألقوه فى النار وأحرقوه.

وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ أى يشهد بعضهم

لبعض عند الملك بأن أحداً منهم لم يقصر فيما عهد إليه من تعذيب المؤمنين وإحراقهم من غير رحمة أو شفقة .

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ أى وما عابوا عليهم سوى إيمانهم بالله والركون إلى الإيمان لا يستدعى النقمة أو العيب ، فالإيمان شيء مستحب ومطلوب ، فنفى النقمة أولا حين قال (وَما نقموا) وهى صفة مدح ، وأثبت (الإيمان) ثانياً حين قال (يؤمنوا) وهى صفة مدح أخرى ، فجاء مدح بعد مدح ، وهذا ما يسميه علماء البلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم . وعبر فى الآية بلفظ المضارع ، مع أن الإيمان وجد منهم فى الماضى ، لأنه أراد الاستمرار والدوام على الإيمان ، فكأنه قيل : إلا أن يستمروا على إيمانهم ، ووصف الله بالعزة والحمد ؛ لأن كمال القدرة ، وتمام العلم لا يتم إلا بهما .

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾

وصف الله ذاته بهذه الصفات ليعلم أنه لم يمهل الكفار لأنه غير قادر ، وإنما أراد أن يبين أن هؤلاء المؤمنين لم يبلغوا الثواب العظيم إلا بالصبر الجميل ، وأن الكافرين لم ينالوا العقاب الشديد إلا بأفعالهم الشنيعة ، وفيه تشنيع على الكفار بغاية جهلهم حيث اعتبروا ما يستوجب المدح منقصة تستوجب الذم !

فوعْد المؤمنين بالصبر والنصر ، ووعيد الكافرين بالبطلان

والخذلان ، الله شهيد على كل ذلك عالم به يراه ويقدر على مجازاته ، فشهيد مبالغة من الشاهد ، فإذا علم العبد أن الله شهيد على أفعاله ، مطّلع على أحواله ، سهل عليه كل ما يقاسيه لأجله .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ أى امتحنوهم فى دينهم بالإيذاء والتعذيب حتى يرجعوا عن دينهم ، كما فعل أصحاب الأخدود والكافرون استمروا فى طغيانهم وفتنتهم ، وعبر بـ(ثم) ليشعر الخلق أن الله يعطى من الفرصة المدة الطويلة ؛ ليدل على كمال حلمه وكرمه حيث لا يعجل بالقهر ؛ بل يقبل التوبة ، ويعفو عن السيئة ، هؤلاء بسبب فتنتهم للمؤمنين لهم عذاب جهنم يعذبون به أبدا ، ولهم عذاب زائد على سائر أهل النار ، فالعذابان فى الآخرة ، وإن كان بينهما تغاير . أو أراد بعذاب جهنم بردها وزمهريرها ، وبعذاب الحريق حرها وتلظّيها ، فيترددون بين حرّ وبرد ، فالحر لإحراقهم المؤمنين فى الدنيا ، والبرد لغير ذلك من ارتكاب آثامهم .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ أى كل مؤمن سواء فتن فى دينه أم لا ، وعمل صالحا ، أو صبر على أذى الكفار وإحراقهم يجازى بدخول الجنات ، كما يجازى الكافر بالإلقاء فى النار ، وعند ذلك تصغر فى عينه الدنيا ، ويهون نعيمها الذى كان يتمتع به الكفار ، فهذا هو الفوز والظفر بالخير ، والنجاة والبعد عن الشر . وقال (ذلك الفوز)

ولم يقل (تلك) ليناسب الجنات السابقة، لغرض بلاغى وهو أن قوله (ذلك) إشارة إلى إخبار الله بحصول هذه الجنات، ولو قال (تلك) لكانت الإشارة إلى نفس الجنات، والله يخبر عن ذلك لكونه راضياً، فظهر الفرق، فالفوز الكبير هو رضى الله، ونفس الجنات ليست بفوز، وإنما الفوز دخول الجنات.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ البطش: تناول الشيء بقوة، والأخذ بعنف، فالله يبطش بالجبابرة والظلمة، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر، بعد إمهال عن حكمة لا عن عجز.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾ ذكر الضمير (هو) يفيد الحصر أى هو وحده الذى يبدىء الخلق، ويوجدهم من العدم ويميتهم، ويبعثهم للمجازاة على الخير والشر، وفى ذلك مزيد لشدة بطشه.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب عن الكفر وآمن، ﴿ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ المحب لمن أطاع واعتمد عليه، أو هو محبّ لعباده بإسباغ النعم عليهم ودوام العافية لهم، فمحبة العبد لله، طاعته له وهيبته فى قلبه، يقول بعض المفسرين: الهوى: أول وقوع الحبّ فى القلب، والعشق: التفاف الروحين، والحب: صفاء ذلك الالتفاف وخلوصه، والودّ: ثباته وتمكنه فى القلب. فالود: أثبت فى أرض القلب من المحبة؛ لاشتقاقه من الوتد، وفى القاموس: الودّ: الوتد يقول الإمام الغزالى: الودود: هو الذى يحب الخير لجميع الخلق، فيحسن إليهم، ويثنى عليهم، وهو قريب من معنى الرحيم.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ أى خالق العرش ومالكه ، وصاحب السلطة القاهرة على جميع المخلوقات ، تقول : ثلّ عرش فلان : إذا ذهب سلطانه ، وتوارى عزّه . والمجيد : الشريف ذاته ، الجميل أفعاله ، الجزيل عطاؤه ، فمجيد صيغة مبالغة من ماجد فى الدلالة على المعنى .

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ قال فعال على المبالغة ؛ لأن ما يريد ويفعل فى غاية الكثرة فهو المحيى ، والمميت ، والمعز ، والمذل ، والنافع والضار ، إلى غير ذلك مما لا يحصى . فيدخل أولياءه الجنة ، لا يمنعه مانع من ذلك ، ويلقى بأعدائه فى النار لا ينصرهم ناصر ، ويمهل بعض العصاة إلى حين يشاء ، ويعجل بالعقوبة لمن يشاء ، فهو فعال لما يريد .

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ هل ليست للاستفهام حقيقة ، وإنما أريد بها التقرير ، أى أتاك خبر هذه الجموع الكافرة التى تهجمت على الأنبياء فى الماضى وما حدث لهم من عقاب ، فهذا هو .

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ جنود فرعون ، وقوم صالح ، قد عرفت ما صنع الله بهم من تعذيب فذكّر قومك ، وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أسلافهم ، وكانوا قد سمعوا قصة فرعون وجنوده ، وإغراقهم فى اليم ، ورأوا آثار هلاك ثمود قوم صالح عليه السلام لأنهم كانوا فى بلادهم . وأخر ثمود مع أنه متقدم عليه فى الزمن ، أخره لرعاية الفواصل مع الآيات الأخرى .

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾ كفروا من قومك أشدّ كفراً وطغياناً من السابقين ، وتنكير تكذيب للتعظيم ، كأنه قيل : ليسوا مثلهم فى الطغيان ؛ بل هم أشد منهم فى استحقاق العقاب والعذاب ، لأنهم مداومون على تكذيب القرآن الذى ينطق بالآيات الباهرة .

﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾ أى والله من خلفهم محيط بهم ، قادر عليهم ، فالله يمثل حالهم من عدم النجاة ، واليأس من الغفران بحال الدائرة التى تحيط بما فى داخلها ، ولا يستطيع ما فى الداخل أن يجد منفذاً للهرب منها .

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ أى ليس الأمر كما زعموا ، وافتروا ، بل هو قرآن شريف عالى المكانة بين الكتب السماوية ، فى نظمه ، وإعجازه ، وبلاغته .

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ من التحريف والتجديف ، وكل صحيفة من خشب أو عظم أو سعف تسمى لوحاً . فهذا القرآن المتلوّ على الكافرين والمنافقين قرآن عظيم ثابت فى قلب الرسول ﷺ ، وفى قلوب ورثته من الأولياء العارفين . المحبين ، محفوظ من تحريف الأيدى الماكرة ، والقلوب الكافرة . ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ الحجر ٩ .

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ الطارق: اسم فاعل من طريق، إذا جاء ليلاً، وسمى قاصد الليل طارقاً؛ لاحتياجه إلى طرق الباب غالبا، حيث إن الأبواب مغلقة بالليل. والمراد بالطارق: النجم الذى يظهر ليلا، وعبر عنه بالطارق لاختصاص ظهوره بالليل.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ أى شيء أعلمك بشأنه؟ إذ لا يدركه إلا من يتلقى ذلك عن الخلاق العليم – وكأن سائلاً يسأل ما هو؟ فقيل هو: النجم الثاقب أى النجم المضيء؛ لأنه يثقب بنوره ما يقع عليه من الظلام وينفذ فيه، والله سبحانه أقسم بالسماء وبالنجوم لدلالتها على قدرته وحكمته، وفسر الطارق بالنجم الثاقب لإظهار فخامة شأنه.

يقول بعض المفسرين فى قوله تعالى ﴿والسَّمَاءِ وَالطَّارِق﴾ أى العقل الإنسانى الذى يظهر فى ظلمة النفس، فيثقب ظلمتها وينفذ فيها، بنوره، وتهتدى به.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ جواب للقسم، وما بين القسم والمقسم به اعتراض جيء به لتأكيد فخامة المقسم به، والمعنى: ما كل نفس من النفوس أيّا كان نوعها: طيبة أو خبيثة، إنسية أو جنيّة إلا عليها رقيب وحافظ وهو الله سبحانه، يقول الله: ﴿وَكَانَ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ الأحزاب ٥٢ .

وقيل المراد بالحافظ : هو من يحفظ عملها ، ويحصى عليها ما تكسب من خير أو شر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِين ﴾ الانفطار ١٠ وعن النبى ﷺ « وُكِّل بالمؤمن مائةٌ وستون مَلكا ، يذبّون عنه كما يذبّ عن قصعة العسل الذباب ، ولو وكّل العبد إلى نفسه طرفة عين ، لتخطفته الشياطين » وفى الآية تخويف للنفوس من الأمور الضارة ، وترغيب فى الشئون النافعة ، فعلى الإنسان أن يحفظ جوارحه وقلبه ودينه عن سطوة الغضب ، وحلاوة الشهوة ، وخداع النفس ، وغرور الشيطان .

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ ٥ .فليتفكر الإنسان فى نفسه ويعود بها إلى أصل خلقه ، فمن أى شيء خلق ، وهذا تمهيد لبيان قدرة الله ، فمن يقدر على الخلْق ، فهو أقدر على الإعادة .

﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ ٦ ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ ٧

خلق من ماء مدفوق ، مصبوب ، سائل باندفاع ، فهو فاعل بمعنى المفعول نحو سر كاتم ، أي مكتوم ، وعيشة راضية ، أى مرضية . يخرج هذا السائل المنوى من بين ظهر الرجل ، وضلوع صدر المرأة وعظام نحرها ، حيث تكون القلادة ، ومن ذلك يتحمل الوالد مصالح معيشة الولد ، وتشتد رقة الوالدة ومحبتها للولد ، وهذا مما يرجح القول بأن النطفة تتكون من جميع أجزاء البدن ، ولذلك يشبه الولد والديه غالباً ، فيجتمع ماء الرجل فى صلبه ، ثم يجرى منه ، ويجتمع ماء المرأة فى ترائبها ثم يجرى منها . ولم يقل من ماءين ؛ لامتزاجهما فى الرحم ، واتحادهما فى نشأة الخلقة .

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ إن الله الذى خلق الإنسان من هذا السائل المتدفق لقادر على إعادته مرة أخرى، وقدم الجار والمجرور وهو: على رجعه- على عامله، وهو لقادر، للاهتمام بالإرجاع والبعث؛ لأنه المعول عليه فى الكلام، وهذا لا ينافى قدرة الله سبحانه.

يقول بعض المفسرين: إن الله خلق الإنسان لإظهار قدرته، ثم رزقه لإظهار كرمه، ثم أماته لإظهار جبروته، ثم يحييه لإظهار ثوابه وعقابه.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ الابتلاء: الاختبار، والمراد به الكشف والتمييز؛ لأن الاختبار سبب فى إظهار حقيقة الشىء، والسرائر: جمع سريرة وهى وعاء الكتمان والإخفاء، والمعنى: أن الله سبحانه يتصفح ما أسر فى القلوب من العقائد والنيات، وما أخفى من الأعمال، ويميز ما طاب منها وما خبث. يقول ابن عمر رضى الله عنهما: «يُبدى الله يوم القيامة كل سرّ، فيكون زينا فى وجوه، وشينا فى وجوه» يعنى من أدى الأمانات كان وجهه مشرقا، ومن ضيعها كان وجهه قاتماً.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ أى فما له من قوة فى نفسه يمتنع بها عن العذاب الذى حل به، ولا ناصر من خارج نفسه ينتصر به، إذ كل نفس مشغولة بشأنها وما اقترفت من خير أو شر. فالانتصار قوة، والقوة قد تكون نابعة من صلابة الإنسان وشدته، وقد تكون مستفادة من غيره، فهى قوة له ونصر.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ فالرجع هو المطر ، وسمى رجعا ؛ لأن العرب يعتقدون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض ثانية . والصدع نبات الأرض ، وسمى به لأنه يصدع الأرض ويشقها .

أقسم الله أولاً بالسماء مجردة عن الوصف ، وثانياً بأنها مقيدة بأنها ذات رجع ، وبالأرض بأنها ذات صدع ؛ إيماء إلى كرمه البالغ بمنح المنافع .

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ إن القرآن بما نطق به من خلق الإنسان وإعادته قول سديد ، فاصل بين الحق والباطل ، وعبر بالمصدر كأنه نفس الفصل ؛ مبالغة فى ذلك ، فالقرآن حق لا باطل فيه ، وجد لا هزل يعتريه ، فجميعه جدّ محض ليهتدى به الغاوون ، ويسير على نهجه المنحرفون فيعتدلون .

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ إن كفار مكة يحاولون إبطال أمره ، وإطفاء نوره ، بكل ماوسعهم من قوة ، ولكن الله يقابلهم بكيد متين لا يمكن رده ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، فسمى الاستدراج كيداً من باب المشاكلة ؛ لأن الكيد لا يجوز نسبته إلى الله تعالى على الحقيقة . فلا تشغل بالك بالانتقام منهم ولا تدْع عليهم بالهلاك ولا تستعجل به ، وإنما تمهل معهم وترفق بهم ، وفيه إشارة إلى قرب وقت الانتقام من الكافرين ، وتسلية للرسول عليه السلام ، ولم يكن بين نزول هذه الآية وبين غزوة بدر التى اندحر فيها المشركون سوى زمن يسير .

سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) التسبيح : التنزيه ، أى تنزيه اسم الله تعالى عما لا يليق به ، والأعلى : صفة للرب ، فهو أعلى من أن يحيط به وصف الواصفين ، وعلم العارفين ، وليس له تعالى علو جهة ولا كبر جثة ؛ بل علو استحقاق لصفات الجلال والكبرياء ، فينبغى للمسلم أن ينزه اسم الله تعالى عن الإلحاد ، وزيغ العقيدة ، ولا يشارك مع الله صنما ولا وثنا ، كما كانوا يطلقون على الصنم والوثن اسم الرب والإله ، ومنه تسمية العرب مسيلمة الكذاب برحمن اليمامة .. وفى الحديث : لما نزلت : ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ قال عليه السلام : «اجعلوها فى ركوعكم» فلما نزل : ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال : «اجعلوها فى سجودكم» وكانوا يقولون فى الركوع : اللهم لك ركعت ، وفى السجود : اللهم لك سجدت . وسر اختصاص سبحان ربى العظيم بالركوع ، والأعلى بالسجود ؛ أن الكبرياء لله وحده ، وكان فى الصعود على الثنايا ضرب من الاستعلاء ، فسنّ التكبير ، أى أن الله أكبر وأعلى من أن يشاركه أحد فى كبريائه ، وأما الأمر بالتسبيح فى الهبوط ، فشأنه أن الله حيثما كنّا ، لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ﴾ فإذا كنا فى هبوط فالله معنا ، لكن الله منزه عن الهبوط والتحتية ، فالله عظيم فى كل حال . فلهذا شرع التكبير بالأعلى فى الصعود ، والتسبيح بالعظيم فى الهبوط .

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ أى خلق كل شيء فسوى خلقه، بأن وفر له كل مايتأتى به كماله، ويتسنى به معاشه. ويقول بعضهم: خلق الخلق فسوى بينهم فى الخلقة، وميز بينهم باختصاص بعضهم بالهداية.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ أى قدر أجناس الأشياء وأنواعها ومقاديرها وأشكالها وأفعالها وآجالها، وسائر صفاتها كالحسن والقبح، والسعادة والشقاء والهداية والضلال، ووجه كل واحد إلى ماينبغى له طبعا واختياراً، ويسرهُ لما خلق له بحسب ميله ورضاه.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ أى أنبت بكمال قدرته ما ترعاه الدواب غضّا طريّا.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ أى هشاً متهالكاً أسود اللون، فالكلأ إذا جف ويبس اسودّ، سواء كان سواده وجفافه بتأثير حرارة الشمس أو برودة الهواء، وفى ذلك إشارة إلى زوال الدنيا ونعيمها، وسرعة فنائها وفتنتها، فينبغى علينا أن لا نلتفت إليها، ولا ننشغل بها، فإنها مانعة من التفكر فى الله وفى تسبيحه.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ أى سنهديك لتلقى الوحى وحفظ القرآن لتهدى به الناس أجمعين، وأنت لاتنسى ماتسمعه من الحق تبارك وتعالى، فهذا وعد كريم باستمرار الوحى متضمناً الوعد بالقراءة، والمعنى: سنقرئك ما نوحى إليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل، فلا تنسى أصلا من قوة الحفظ والإتقان.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن تنساه بأن ننسخ تلاوته ، فكأنه بالنسخ محى من الصدور فالمراد بالنسيان ، هو النسيان الكلى الدائم بحيث لا يعقبه تذكر أبداً . والرسول ﷺ يقول : « إنما أنا بشر أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكرونى » وقال تعالى : ﴿واذكُر رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فالنسيان يجرى على الرسول وإن لم يكن نسيانه من قبيل سهو الأمّة ونسيانها .

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ أى يعلم كل ما يظهر من الأمور وما يخفى منها ، فى الضمائر من النيات ، ويدخل فيه ما أنساك الله من الأمور ، وما أبقاك على حفظه لما فيه مصالح دينكم .

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ أى ونسهل لك ونوفقك توفيقاً مستمراً فى كل باب من أبواب الدين علماً وتعليماً وهداية ، وقال (نيسرك) بنون العظمة ؛ لتكون عظمة المعطى دليلاً على عظمة العطاء .

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ أى فذكر الناس كما يسرناك له واهدهم إلى الأحكام الشرعية ، إن نفع التذكير والعظة والنصيحة ، وذكر من يرجى منه التذكر ، ولا تتعب نفسك مع من لا يزيده التذكير إلا عتوا ونفورا من الذين طبع الله على قلوبهم ، ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ وقد علم رسول الله ﷺ أن الذكرى تنفع لا محالة إما فى ترك الكفر أو فى ترك المعصية ، أو فى الاستكثار

من الطاعة ، وفى ذلك حث على نفع التذكر وإن كان مشروطاً بشرط الاستعداد والتقبل .

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ١٠﴾ الله فيزداد بذلك التذكير تفكراً فى أمور الدين ، فيقف على حقيقتها ويؤمن بها .

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ١١﴾ أى لا يقبلها من ازداد شقاوة ، لتوغله فى عداء النبى ﷺ مثل أبى جهل والوليد بن المغيرة ونحوهما ، وربما يكون الأشقى أعم من ذلك فيدخل فيه كل كافر .

﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ١٢﴾ فيدخل الطبقة السفلى من طبقات النار ، فنار جهنم دركات متباينة ، والكفار يصلون أعظم النار منها . فالنار الكبرى : هو العذاب الأكبر الذى يعذب به فى الآخرة ، وكل عذاب آخر دونه فى العذاب .

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ١٣﴾ فلا يموت فيها فيشعر بالراحة ، ولا يحيى حياة تنفعه ، كما يقال لما ابتلى بالبلاء الشديد لا هو حىّ ولا هو ميت ، وهذا أشد وأنكى من الاصطلاء نفسه .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ أى نجا من المكاره ، وظفر بما يرجوه من تطهر من المعاصى والكفر باتعاظه وشدة تقواه ، وخشيته من العذاب ، وذكر الله بقلبه ولسانه فأقام الصلوات الخمس ، فالصلاة فيها من التواضع والخشوع وإضاءة القلب بمعرفة جلال الله بحيث لابد أن يظهر فى جوارح الإنسان ، فخلق الله له جبهة

للسجود وعينا للعبرات، وبدناً يصلح للخدمة، وقلباً يفيض بالمعرفة، فاذكروا نعمة الله عليكم ولا تجحدوها .

روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن المراد بالتزكى : إخراج صدقة الفطر قبل المضى إلا الصلاة، وبالذكر أن يكبر فى الطريق حين خروجه إلى المصلى، وبالصلاة أن يصلى صلاة العيد بعد ذلك مع الإمام، وعلى الرغم من أن هذه السورة مكية بالإجماع، ولم يكن بمكة عيد ولا صدقة فطر، إلا أن الله تعالى يخبر عما سيكون فى المستقبل، وفى الآية إشارة إلى تطهير النفس وتطهير القلب عن حب الدنيا وشهواتها .

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ أى تسعون إلى تحصيل لذاتها العاجلة الفانية، وتعرضون عن الآخرة كلية، كما فى قوله تعالى : ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ يونس ٧، ٨ .

وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ورغم أنكم تؤثرون الحياة الدنيا إلا أن الآخرة خير فى نفسها لأن نعيمها أبدى دائم لا انقطاع له .

إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾
أى ما ذكر أولاً من الآيات بما فيها من تطهير النفس، والزهد عن نعيم الدنيا، والتكالب على شهواتها، والترغيب فى الآخرة، وفى ثواب الله

لا يجوز أن يختلف باختلاف الشرائع، ولذلك فقد وجدت هذه الشرائع فى صحف جدك إبراهيم الخليل، وأخيك موسى الكليم، وروى أن جميع ما أنزله الله من كتب بلغ مائة وأربعة كتب: أنزل على آدم عشر صحف، وعلى شيت خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشرة صحائف، والتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، وصحف موسى هى الألواح التى كتبت فيها التوراة.

سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١﴾ الغاشية : الداهية الشديدة التى تغشى الناس بشدائدها ، وهى القيامة . والاستفهام هنا أريد به التعجب والتشويق إلى استماعه ، والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التى ينبغى أن يتناقلها الرواة .

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢﴾ إجابة عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : ما أتانى حديثها ماهو ؟ فقيل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ والخشوع والخضوع والتواضع كلها بمعنى واحد يعبر به عما يعترى الإنسان من الذل والخزى والهوان ، ومن شأن الذل أن يظهر فى الوجه ، فعبر بالوجه وأراد المرء نفسه على سبيل المجاز ، والمراد بأصحاب الوجوه هنا هم الكفار .

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ النصب : التعب ، أى تعمل أعمالاً شاقة تتعب فيها ؛ لأنها تكبرت عن العمل لله فى الدنيا ، فكلفها الله بأعمال شاقة فى الآخرة ، كجرّ السلاسل والأغلال ، والخوض فى النار كخوض الإبل فى الوحل، والصعود فى تلال النار ، والهبوط فى وهادها .

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ تدخل ناراً متناهية فى الحرّ وتذوق

آلامها، فالنار حامية بطبعها، وإنما أراد دائمة الحمى، لا تفتر ولا تنقطع أبداً.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾ يُسقى هؤلاء الكفار بعد مدة طويلة من استغاثتهم، من شدة العطش ونهاية الاحتراق، من عيّن تتفجر بالماء البالغ فى الحرارة، فإذا أدنيت من وجوههم تناثرت لحوم وجوههم، وإذا شربوا من مائها تقطعت أمعاؤهم.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦﴾ الضريع: شوك ترعاه الإبل مادام رطباً، وإذا يبس تحامته؛ لأنه يصبح سماً قاتلاً، وسموا الشوك ضريعاً؛ لأنه مضعف للبدن، يقال: ضَرِع الرجل ضراعة: إذا ضعف وذل، والضريع طعام بعض أهل النار، والزقوم والغسلين طعام لبعضهم الآخر حسب أعمالهم وجرائمهم، وبذلك يندفع التعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى فى سورة الحاقة ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ آية ٣٦ ويمكن أن تكون هذه الأنواع من الأطعمة لشخص واحد؛ بأن يكون الزقوم نزلا له، والضريع آكلا له بعد ذلك، والغسلين شراباً له كالحميم.

﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧﴾ أى ليس من شأنه الإسمان ولا الإشباع، كما هو شأن طعام الدنيا، وإنما هو شىء يضطرون إلى أكله دون أن يمدهم بالفائدة. وسبب اضطرارهم أن النار تتلوى فى أحشائهم، فيتلهفون إلى إدخال شىء كثيف يملؤها، ويُخرج ما فيها

من اللهب . ويروى أنه تعالى يسلط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع ، فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش فيضطرهم إلى شرب الحميم فيقطع أمعاءهم . وتنكير الجوع للتحقير ، أى لا يغنى من أىّ جوع مهما كان قليلاً أو حقيراً .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ ناعمة : مِن نَعُم الشىء نعومة ، أى صار ناعماً لينا ، والمراد وجوه المؤمنين المتنعمة بالنعم الجسمانية والروحانية ، لها بهجة وحسن وضياء . وقدم هنا فى السورة حكاية أهل النار ؛ لأنه أدخل فى تهويل الغاشية وتفخيم حديثها .

لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ لعملها الذى عملته فى الدنيا حيث شاهدت ثمرته ، ورأت عاقبته الحميدة فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ فى جنة مرتفعة المكان ، فإن الجنات فوق السموات العلى ، كما أن النار تحت الأرضين السبع . وفى الحديث : « إن المتحابين فى الله فى غرف ينظر إليهم أهل الجنة ، كما ينظر أهل الدنيا إلى كواكب السماء » أو عالية فى قدرها وشرفها لتكامل ما فيها من النعم ، وفى ذلك إشارة إلى المقامات العالية ، مقامات أهل الوجاهة والشرف المعنوى .

لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ لا تسمع فى تلك الجنة العالية لغوا من الكلام ، وهو ما لا يعتد به ، كما لا تسمع لغوا فى مجالس أهل التقوى فى الدنيا ، لاستغراق أهلها فى الذكر ، وسماع خطاب الحق ، والبعد عن اللهو والعبث .

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ١٢﴾ تنكير « عين » هنا للتكثير ، أى عيون كثيرة يجرى ماؤها على الدوام حيث شاء صاحبها ، أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، من شرب منها لا يظمأ بعدها أبدا ، ويحدث فى قلبه الصحة والشفاء .

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ١٣﴾ يجلسون عليها ، عالية فى الهواء على قوائم طوال ، إذا جلس المؤمن عليها رأى جميع ما أعطاه ربه فى الجنة من النعيم الكبير ، والملك العظيم . أو رفيعة المقدار من حيث اشتمالها على جميع جهات الحسن والكمال فى صفاتها وأحوالها .

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ١٤﴾ جمع كوب ، وهو إناء لا عروة له ، موضوعة بين أيديهم حاضرة يشربون منها ، ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ١٥﴾ أى وسائد صفت بعضها بجوار بعض كما نشاهد فى بيوت الأكابر ، أينما أراد أن يجلس المؤمن ، جلس على واحدة ، واستند إلى أخرى ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ١٦﴾ أى بسط فاخرة مبسوطة على السرر زينة ومتعة . وفى هذا النعيم الحسى إشارة إلى انبساط أرواحهم وانشراح صدورهم ، وانفتاح قلوبهم .

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧﴾ الإبل اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وإنما واحدها : بعير ، وناقة ، وجمل . والهمزة هنا للإنكار والتوبيخ ، فالله يوبخهم على إنكارهم ما ذكر من البعث واستبعاد وقوعه ، فلماذا لا ينظرون إلى الإبل التى يستعملونها كل حين ، وكيف خلقت خلقاً بديعاً غريباً عن سنن خلقه لسائر أنواع الحيوانات فى عظم جثتها وعجيب هيئتها ، وإتيانها بالأفعال

الشاقة كالنهوض من الأرض بالأوقار الثقيلة، وجرها إلى الأقطار النازحة، وفى صبرها على الجوع والعطش مدة عشرة أيام أو تزيد، واكتفائها باليسير من الزاد، ورعيها لكل ما تيسر من شوك وشجر، وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم، ومع ذلك فإنها تنقاد للإنسان فى الحركة والسكون والبروك والنهوض حيث يستعملها فى ذلك كيفما يشاء، وتبول من خلفها؛ لأن قائدها أمامها فلا يصيبه بولها، وعنقها سلم إليها، وتتأثر من المودة والغرام وتسكر منهما إلى حيث تنقطع عن الأكل والشرب زماناً ممتداً، وتتأثر من الأصوات الحسنة والحداء، وتصير من كال التأثر إلى حيث تهلك نفسها من سرعة الجرى، ويجرى الدمع من عينيها عشقاً وغراماً .

ولم يذكر الفيل مع أنه أعظم خلقة من الإبل؛ لأنه لم يكن بأرض العرب، فلم تعرفه ولا يحمل عليه عادة، ولا يحلب دره، ولا يؤمن ضرّه .

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ١٨﴾: هذه السماء التى تشاهدها كل لحظة آناء الليل وأطراف النهار، كيف رفعت بلا أعمدة فيحار فيها الفهم والإدراك .

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ١٩﴾ هذه الجبال التى ننتفع بأشجارها وسيلان الماء فيها، كيف نصبت نصباً رصيناً، فهى راسخة لا تميل ولا تميد، فالجبال كالأوتاد بالنسبة للأرض .

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ وبسطت على ظهر الماء بسطاً حسبما يقتضيه صلاح من عليها من المخلوقات، وعبر بأنها سطحت ولم يقل: كيف كوّرت؛ لأن الكرة إذا كانت عظيمة جداً كالأرض، تكون كل قطعة منها كالسطح، فيصح أن يطلق عليها البسط، والمعنى: أفلا ينظرون إلى عجائب المخلوقات الناطقة بقدرة الله على الخلق والبعث حتى يرجعوا عما هم فيه من الإنكار، ويستعدوا للقاء الله بالإيمان والطاعة.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أى اقتصر على تذكيرهم، ولا تلح عليهم، ولا تهتم إن كانوا لا ينظرون ولا يتذكرون، فأنت مبلغ، ولست بمسلط عليهم تجبرهم على ما تريد، أنت منذر ولست هاديا.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ فمن أعرض عن الحق، وثبت على الكفر، فإن الله سيذيقه عذاب جهنم، بحرها الشديد، وقعرها البعيد، ومقامعها الحديد، فكل ما يناله الكافر من العذاب فى الدنيا صغير إلى جانب عذاب جهنم.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ تقديم «إلينا» يفيد التخصيص، أى إلينا رجوعهم بالموت والبعث لا إلى أحد سوانا، وجمع الضمير فى إيابهم وحسابهم باعتبار معنى (مَنْ) فى الآية السابقة، وأفرد الضمير فيما سبق باعتبار لفظها. ونحن نحاسبهم لا غيرنا نحاسبهم على نياتهم وأعمالهم، يقول عليه السلام: «لو لم ينزل علىّ إلّا هذه الآية لكانت تكفى».

سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ جاء القرآن على عادة العرب فى القسم ؛ إذ كانوا أكثر خلق الله قسماً ، فأقسم الله بالفجر ، وهو الفجر الصادق الذى يتعلق به الصوم والصلاة عند ظهور أول شعاع من ضوء الشمس ، فينتشر الناس وسائر الحيوانات والطيور فى طلب الأرزاق ، والاستيقاظ من النوم وما يعقبها من الحركة الدءوب أشبه بالبعث ونشر الموتى ، وفى ذلك عبرة عظيمة لمن يتأملها .

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وهى عشر من ذى الحجة ؛ ونكّر ليالٍ للتعظيم ؛ لأنها مخصوصة بفضائل ليست لغيرها ، كالاشتغال بأعمال الحج ومناسكه ، وعيدِ الأضحى وغير ذلك . أو العَشرُ الأواخرُ من رمضان ، فيكفيها شرفاً ماتتضمنه من ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر .

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ أى أقسم بالأشياء كلها ، شفعِها ووَترها ؛ لأن كل شىء لابد أن يكون شفعاً أو وتراً ، زوجاً أو فرداً .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ والسّرى : السير ليلاً ، والليل إذا يسر ، أى يمضى ، فإن قيل : القسم بالليل إذا يسر ، يغنى عن القسم بليالٍ عشر ، والواقع خلاف ذلك ؛ لأن فى قوله والليل إذا يسر ، خصوصية لاتوجد فى ليالٍ عشر ؛ لأن الأول باعتبار سيره ومضيه ، والثانى بلا اعتبار المضى فيه ، فلا يغنى أحدهما عن الآخر .

ويجوز أن يكون المعنى (والليل إذا يسر) أن يسرى فيا السارى ، ويسير فيه السائر فإسناد السرى إلى الليل مجاز ، كقولك نهاره صائم ، أى هو صائم فى نهاره ، لأن السرى وقع فى الليل ، والصوم حدث فى النهار .

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ الاستفهام هنا جاء للتقرير والتحقيق لفخامة شأن ما أقسم به من الفجر وليالٍ عشر إلخ ، فهى أمور جليلة جديرة بالإعظام والتقدير عند ذوى العقول الراجحة ، وخليق بها أن تؤكد الأخبار ، «وذى حجر» ذى عقل مستنير بنور المعرفة والحقيقة ، فما أقسم به الله جدير بأن يُقسم به إجلالا وتعظيماً .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ الاستفهام هنا إنكارى يفيد النفى ، فإذا دخل على نفى كهذه الآية ، تأكد الإثبات ؛ لأن نفى النفى إثبات ، أى لقد علمت علماً يقينيًا ، يجرى مجرى الرؤية ؛ لشدة جلائه ووضوحه ، كيف عذب ربك عادا ، وسيعذب كفار قومك أيضاً ؛ لأنهم مثلهم فى الكفر والمعاصى .

والمراد بعاد : أولاد عاد الذى يرتفع نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام ، وهم قوم هود عليه السلام ، سمُّوا باسم أبيهم ، فلفظ عاد اسم للقبيلة المنتسبة إلى عاد ، وقد قيل لأوائلهم: عادٌ الأولى ، ولأواخرهم عادٌ الأخيرة .

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ المراد بإرم عاد الأولى ، وإرم اسم بلدتهم التى كانوا فيها ، وكانت منازلهم بين عُمان إلى حضرَ مَوت ، وهى بلاد الرمال والأحقاف ، «وإرم ذات العماد» أى ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالأعمدة ، أو ذاتُ البناء الرفيع ، فقد كانوا ذاتَ أبنية مرفوعة على العمد ، فكانوا ينصبون الأعمدة ويبنون فوقها القصور ، وكانت قصورهم تُرى من أرض بعيدة .

﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾ أى لم يخلق مثل أهلها فى عظم الأجساد والقوة ، حيث يبلغ الرجل منهم من الطول والعرض مالا يبلغه سواه من الأقوام الأخرى ، ولذلك كانوا يقولون : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فصلت ١٥ ويجوز أن يكون معنى الآية : لم يخلق مثلها فى البلاد التى حولها ، أما ماأنشىء من البلاد بعد نزول القرآن ، فلا تنطبق عليها الآية .

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ وثمود : قبيلةٌ مشهورة سميت باسم جدهم ثمود ، الذى يصل نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام أيضاً ، وكانوا من العرب العاربة ، يسكنون بين الحجاز وتبوك ، وكانوا يعبدون الأصنام كعاد . وثمود : هم قوم صالح ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾ الأعراف ٧٣ والجوب : القطع ، والصخر : حجر صلب شديد ، والواد أو الوادى : موضع بين جبلين يسيل فيه الماء ، والمعنى : قطعوا صخر الجبال فاتخذوا فيها بيوتاً نحتوها من الصخر والرخام ، وقد بنوا مدناً كثيرة كلها من الحجارة .

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾ أى فرعون موسى، وهو الوليد ابن مصعب بن ريّان القبطى، وفرعون لقب أفرده الله تعالى بالذكر، لانفراده بالتكبر والعلو، حتى ادعى الألوهية. وقد وصفه القرآن بذى الأوتاد؛ لكثرة جنوده وخيامهم التى يضربونها فى منازلهم، ويربطونها بالأوتاد.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾ هذه الفئات الثلاث التى طغت فى البلاد، عادٌ طغت باليمن، وثمودُ بأرض الشام، وفرعون بمصر، فأفسدوا فى البلاد بكفرهم ومعاصيهم، وظلمهم.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ أى أنزل عليهم العذاب الشديد إنزالاً مستمراً لا هَوادة فيه، وأذاقهم ألواناً من العقوبات، فأرسل الريحَ لعاد، والصيحةَ لثمود، والغرقَ لفرعون، وسمى العذاب سوطاً على سبيل الاستعارة، ليؤكد تكرار العذاب، كما يتكرر الضرب بالسوط، ولذلك لم يقل: سيف عذاب مثلا؛ لأن ضرب العنق بالسيف لا يتكرر، وعبر عن إنزال العذاب بالصّبّ ليفيد تتابعه واستمراره، فشبه تتابع العذاب بتتابع قطرات الشيء المصبوب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ فى الآية تسلية لرسول الله ﷺ، وإيذان بأن كفار قومه سيصيبهم مثل ما أصاب هذه الفئات الثلاث من العذاب.

والمرصاد: المكان الذى يترقب فيه الراصدون، وهذا تمثيل

لترصده تعالى بالعصاة وأن مصير الكفار يرجع إليه وحده ، ولا نجاة من عقابه ، وأنهم لا يفوتونه بحال ، فشبه القرآن حال العبّاد من الكفار والعصاة ، وعدم انفلاتهم من عقاب الله ، بحال من قعد على قارعة الطريق يترصّد الناس - ولا طريق لعبورهم سوى هذا الطريق المرصود - ليعاقب الجناة ويؤدبهم ، ويطهرَ المجتمع من شرورهم .

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ هذه الآية متصلة بالآية التى قبلها ، فمن حيث إن الله بصدد مراقبة أحوال عباده ومجازاتهم بأعمالهم خيراً وشراً ، فالإنسان لا يهمه ذلك ؛ لأن مطمح نظره لذةُ الدنيا وشهواتُها ، والمراد بالإنسان : عتبة بن ربيعة وهو سبب نزول الآية ، وإن كانت الآية تعمّه وغيره . فهذا الإنسان الذى يتصف بذلك إذا اختبره الله بالغنى واليسار ، وأكرمه بالجاه والنعمة ، يقول مفتخراً : ربى فضلنى بما أعطانى من الجاه والمال ، ولا شك أننى أستحق هذا الكرم وهذه النعمة ، ويغيب عن نفسه ، ولا يخطر على باله أن تلك النعمة ما هى إلا تفضل من الله عليه ليختبره أيشكر أم يكفر ؟ .

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ فإذا ضيق الله عليه الرزق لحكمة بالغة ، يقول متضجرا ربى أذلنى بالفقر ، ولا يخطر بباله أن الله يريد أن يختبره أيصبر أم يجزع ، وليس فى ذلك إهانةٌ ولا تحقير ، وإنما ينظر الله إليه بعين الرحمة والإشفاق .

وسمى كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء ؛ لأن كل

واحد منهما اختبار للعبد ، فإذا بسط له الرزق فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر ؟ وإذا ضيق عليه الرزق فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع ؟ فالحكمة فيهما واحدة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ونبْلُوكُم بالشرّ والخيْر فِتْنةً﴾ الأنبياء ٣٥ .

كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ هنا انتقال من بيان سوء أقواله إلى بيان سوء أفعاله ، فأراد أن يردع الإنسان بالتوبيخ والتقريع ، فينبه إلى أن الإنسان له أحوال أشد شراً وأفظع خطراً مما ذكر ؛ للدلالة على تهالك الإنسان على المال ، حيث كرمه الله بكثرة المال ، فهاهو يضنّ على اليتيم بالنفقة والكسوة والشفقة ، ولم يعمل بقول رسول الله ﷺ : « أحبّ البيوتِ إلى الله بيت فيه يتيم مكرَم » .

وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ الحضّ : الحث والتحريض ، أى لا تطعمون مسكيناً ولا تأمرون بإطعامه ، فمن لا يحض غيره على إطعام المسكين ، فهو من باب أولى لا يحضّ نفسه على إطعامه ، وفيه ذم للبخيل ومنقصة له ، وكان قدامة بن مظعون يتيماً فى حجر أمية بن خلف ، فكان يدفعه عن حقه ، فنزلت .

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

التراث : الميراث ، وهو المال المنتقل من الميت ، فلا تراعون الله فى توزيع هذا الميراث ، وإنما تجمعون فيه بين الحلال والحرام ، فقد كانوا لا يورّثون النساء ولا الصبيان ، ويأكلون أنصباءهم . أو أنهم كانوا

يأكلون ما جمعه المورث المتوفى من حلال وحرام وهم يعلمون بذلك ، ولم يقتصروا على هذا ؛ بل هم أيضاً يحبون المال حباً شديداً مع حرص وشَرَه ، والمقصود من هذا التصوير ، بيانُ حرصهم على الدنيا فقط ، أما أمر الآخرة فهم عادلون عنه .

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ كلا ردع لهم على هذا السلوك المقيت ، وإيثار الفانية على الباقية ، فأوعدهم الله بما ينتظرهم من هلاك وعذاب ، فسوف تدكّ الأرض دكاً متتابعاً ، ويذهبُ كل ما على وجهها من جبال وبناء وقصور ، ويصبح هباء منثوراً ، وفى هذا العقاب تظهر آيات قدرة الله ، وآثار قهره . وعندما تتغير صورة الكون ، تتنزل الملائكة من كل سماء ، فيصطفّون صفاً بعد صف بحسب مراتبهم ، اصطفاف أهل الصلاة فى الدنيا من الإنس والجن .

يقول صاحب الكشاف :

فإن قلت : ما معنى إسناد المجيء إلى الله ؟

قلت : هو تمثيل لظهور آيات قدرة الله ، وبيان آثار قهره وسلطانه ، مثلت حاله فى ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ، فتظهر بحضوره من آثار الهيبة والسلطان ما لا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم .

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ ومجىء جهنم عبارة عن إظهارها حتى يراها الخلق ؛ مع ثباتها فى مكانها كقوله تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ النازعات ٣٦ فالمجىء بها على الحقيقة ، وحمله بعض العلماء على المجاز فقالوا : إنهم يجرون يباشرون أسباب ظهورها ، وعندئذ يقبل التذكير والإرشاد الذى رفضه فى الدنيا ، فيتعظ به فى الآخرة ، وهذا الاتعاظ يستلزم الندم ، والندم توبة ، ولكن هيهات ، فمن أين يكون له الذكرى وقد فات أوانها .

﴿يَقُولُ يَالَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ ياليتنى عملت لتحصيل ثواب الحياة الآخرة ، فهى حياة نافعة ، دائمة غير منقطعة ، انتفع بها اليوم ، والتحسّر هنا جلى واضح .

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٦﴾

الضمير فى « عذابه » راجع إلى الله تعالى ، والوثاق : هو مايشد به من الحديد والحبال ، أى لا يتولى عذاب الله أحد سواه ، فالأمر كله لله ، ولا يعذِّب مثل عذابه أحدٌ ، ويجوز أن يكون الضمير للإنسان ، ويكون المعنى ولا يُعَذَّب مثلَ عذاب الإنسان أحدٌ .

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ٣٠﴾ ، بعد ما ذكر الله مايتردى فيه الإنسان من شقاوة شرع فى بيان سعادة النفس المطمئنة ، والاطمئنان : السكون بعد الانزعاج ، فالإكثار من عبادة الله يهب النفس اطمئناناً ،

والنفسُ المطمئنة ، هى التى استنارت بنور القلب حتى تحلت بالأخلاق الحميدة ، فعودى إلى ما أعد لك من الكرامة والزلفى ، راضية بما أوتيت من النعيم ، مرضية عند الله ، فادخلى فى زمرة عبادى الصالحين ، وادخلى الجنة معهم ، متنقلة بين سعادة الروح وسعادة الجسد .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : « إذا تُوفى العبد المؤمن أرسل الله ملكين ، وأرسل إليه بتحفة من الجنة ، فقال لها : اخرجى أيتها النفس المطمئنة ، اخرجى إلى رَوح وريحان ، وربٍّ عنك راض ، فتخرج كأطيب ريح مسك وجَده أحد فى أنفه ... وإذا تُوفى الكافر أرسل الله إليه ملكين ، وأرسل إليه قطعة بِجَاد –قطعة من كساء الأعراب– أنْتنُ من كل مُنتن ، وأخشنُ من كل خشن ، فيقال أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى جهنم ، وربٌّ عليك غضبان » وقانا الله من عذاب جهنم ، ووهب لنا نعيم الجنة .

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ لا لتأكيد القسم، كقول العرب: لا والله ما فعلت كذا أى: أقسم بالبلد الحرام الذى هو مكة، ثم إن الله تعالى أقسم بمكة لفضلها، فهى حرم إبراهيم ومنشؤ إسماعيل عليهما السلام، ومسقط رأس الرسول ﷺ، وجعل البينت قبلة لأهل المشرق والمغرب، وفرض الحج إلى بيته بمكة وغير ذلك.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ خطاب للنبى ﷺ، أى وأنت حالّ فى مكة نازل بها، فأظهر الله سبحانه مزيد شرف مكة بحلول النبى فيها، وفيه تعريض لأهل مكة؛ لأنهم بجهلهم أرادوا أن يخرجوه منها، ويؤذوه، وتثبيت لرسول الله، وتعجيب من حالهم فى عداوته.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ الوالد هو إبراهيم، والولد هو إسماعيل عليهما السلام، ونكر (والِدٍ) لتفخيمه، وآثر فى التعبير «ما» على «من» لما فيها من معنى التعجب مما أعطاه الله من الكمال. أو الوالد آدم عليه السلام، «وما ولد» ذريته. وقيل: الوالد هو النبى ﷺ، وما ولد: الأمّة الإسلامية، لقوله عليه السلام: «إنما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم أمر دينكم» ولقوله تعالى: ﴿وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ الأحزاب ٦ وهذا يقتضى أبوته عليه السلام. ونكر: والد وولد؛ للإبهام المقرون بالمدح، ولم يقل: ومن ولد، لأن المراد صفة الولد وغرابة شأنه.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ يقال كبد الرجل كبدا ، إذا وَجِعَتْ كبدُه فانتفخت ، ثم استعمل فى كل نصب ومشقة ، والمكابدة : المقاساة الشديدة .

والمعنى : لقد خلقنا الإنسان فى تعب ومشقة ، فإنه مع كونه أضعف الخلق ، لا يزال يقاسى من ألوان الشدائد مالا يكابده غيره ، فهو يكابد بالصبر على الضراء ، وفى أداء العبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، ويقاسى من الكبر والهرم ، ثم يقاسى شدة الموت ، وسؤال الملك ، وظلمة القبر ، ثم البعث والحساب ، إلى أن يصل إلى موضع الاستقرار إما إلى جنة وإما إلى نار . وفى ذلك تسلية لرسول الله ﷺ مما كان يكابد من كفار مكة .

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ عبّر بضمير الفرد وأراد الجمع ، أى أراد صناديد قريش الذين كابد الرسول من أهوالهم أكثر مما كابد من غيرهم ، أيحسب هؤلاء أن الله غير قادر عليهم ، كلّا ، فإن الله قادر ، وهو عزيز ذو انتقام .

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ يقول - من يظن أن الله غير قادر عليه رعونة وخيلاء - إنه أنفق مالاً كثيراً ، وهو ما أنفق ذلك إلا عن سمعة ومفاخرة ، والتعبير بلفظ الإهلاك إشارة إلى أنه ضائع فى الحقيقة ؛ إذ لا ينتفع به صاحبه فى الآخرة .

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧﴾ يعنى أن الله رآه واطلع على

خبث نيته ، وفساد سريرته ، وأنه مجازيه عليه ، فالإنفاق بطريق المباهاة والتفاخر رذيلة ، فكيف يعده الجاهل الأحمق فضيلة ، والاستفهام هنا لإنكار هذا الحسبان .

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ الاستفهام هنا للتقرير ، أى جعلنا له عينين يبصر بهما الأرض والسماء والنجوم ، ويفرق بعينيه بين ما يضرّ وما ينفع ، كما جعلنا له لساناً يترجم به عما فى نفسه ، ويدرك طعم الأشياء من حلاوة ومرارة ، ولو لم يكن اللسان ، لاحتاج الإنسان إلى الإشارة ، أو الكتابة ، وفى ذلك من العسر ما لا يخفى ، ومنحناه شفتين يستر بهما فمه إذا أراد السكوت ، ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب ، وخص الشفة لخروج أكثر الحروف منها .

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ أى هديناه طريقى الخير والشر ، أو هديناه طريقى الثديين ؛ لأنهما سبباً لحياة المولود ، وتمكين مولود عاجز من رضاع أمه عقيب الولادة ، قدرة من الله ونعمةٌ جليلة . وأصل النجد : المكان المرتفع ، فجعل الخير بمنزلة مكان مرتفع ، بخلاف الشر فإنه يستلزم الانحطاط إلى حضيض الشقاء والفساد ، فكان استعمال النجدين بطريق التغليب .

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ الاقتحام : هو الدخول فى الأمر بشدة ، العقبة : الطريق الوعر فى الجبل ،

وعبر عنها بالعقبة ؛ لصعوبة سلوكها . فأى شيء أعلمك أيها المرء ما اقتحام العقبة ؟، وهلا سلكت الطريق التى فيها النجاة والخير وفك الرقبة ، عتق العبد وتحريره ، كفكّ الغلّ وفك القيد ، وعبر هنا بالرقبة وأراد العبد كلّية على سبيل المجاز . ويحتمل أن يكون المراد بفك الرقبة ، أن يفك المرء رقبة نفسه من عذاب الله ، بأن يشتغل بالأعمال الصالحة حتى يصير إلى الجنة ، ويتخلص من النار . وفى الحديث الشريف : « من فكّ رقبة فكّ الله بكل عضو منها عضواً منه من النار » .

﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤﴾ المسغبة : القحط والغلاء ، والجوع مع التعب ، وقيد الإطعام بيوم المجاعة ؛ لأن إخراج المال فى ذلك الوقت أثقل على النفس ، فيكون أوجب للأجر .

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ يتيماً ذا قرابة للمطعم ، وقيد اليتيم بأن يكون بينه وبين المطعم قرابة ، حتى يستحق فضل الصدقة وصلة الرحم .

والمتربة ، هو من افتقر وكأنه التصق بالتراب من شدة فقره وضره ، فليس فوقه ما يستره ، ولا تحته ما يفرشه . وفى الحديث : « الساعى على الأرملة والمسكين ، كالساعى فى سبيل الله ، وكالقائم لا يفتر ، والصائم لا يفطر » .

وجعل الإطعام لليتيم والمسكين ؛ لما فى ذلك من ثقل على النفس ،

فقد ينفق المرء العديد من الأموال فى هواه ، كالإنفاق على بنات الهوى ، أو بناء الأبنية الفاخرة الزائدة عن الحاجة ، ولا يستكثرها ، وأما اليتيم والفقير ، فلايلتفت إليهما ؛ لهوان شأنهما عنده .

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾

هذا الإنفاق على اليتيم والمسكين هو الإنفاق المرضى النافع عند الله ، وليس إهلاك المال فى الرياء والمفاخرة ، فيكون « مثَله كمثَل ريح فيها صِرّ أصابتْ حرْثَ قومٍ ظلموا أنفسهم فأهْلكتْه » وكذلك من يوصى بعضهم بعضاً على الصبر فى طاعة الله ، والصبر عن المعاصى والمصائب ، وعلى الرحمة بعباد الله ، فالراحمون يرحمهم الرحمن ، وفى الحديث : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » ومن ثم فالآية تشير إلى الحث على الشفقة فى خلق الله . وعبر فى الآية بـ« ثم » لتراخى الإيمان وتباعده فى الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة ، لا فى الوقت .

أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ هؤلاء المتصفون بالأوصاف الجليلة هم أصحاب اليمْن والخير والسعادة ، وعبر باسم الإشارة (أولئك) ليدل على حضورهم ، وعلو رتبتهم ، وبعد درجتهم .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ والذين أنكروا ما فى القرآن هم الغائبون عن شرف الحضور ؛ دلالة على سقوطهم وبعدهم عن رحاب الله ، وهم أصحاب الشؤم والشر

والشقاء ؛ لأن الفساق شؤم على أنفسهم باقترافهم المعاصي ، وشؤم على غيرهم أيضاً ، لإحاطتهم بعامة الناس ، واحتمال تأثرهم بهم .

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ۝٢٠﴾ نار مغلقة أبوابها محكمة نوافذها ، فلا يفتح لهم باب ولا يدخل فيها نسيم ، ولا يخرج منها ضوء إلى أبد الآبدين ، ولن تستقر أقدامهم على قرار أبداً ، ولا تلتقي جفون أعينهم على غمض أبداً ، ولا يذوقون فيها برداً ولا شراباً أبداً .

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وقت الضحى ، أى وقت إشراق الضوء ، والمراد نور الشمس المنبسط على وجه الأرض .

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ أى تبعها بأن يطلع بعد غروب الشمس ، آخذاً من نورها ، فالشمس آية للحقيقة الإلٓهية ، والقمر آية للحقيقة الإنسانية ، فكما أن القمر يستمد نوره من الشمس ، ويهتدى به أرباب الليل فى الظلمات ، فى سيرهم وسلوكهم ، فكذلك الحقيقة الإنسانية تستمد وجودها من الحقيقة الإلٓهية ، ونهتدى بها فى ظلمات الكون ، فى سيرنا وسلوكنا ، وكما أن نور القمر يفنى فى نور الشمس بحيث لا يبقى أثر من نوره ، فكذلك الحقيقة الإنسانية ، تفنى فى نور الحقيقة الإلٓهية ، بحيث لا يبقى لها أثر أصلاً .

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ أى أن النهار يجلّى الشمس ويبرزها ، فتبدو واضحة متجلية ، والحقيقة أن النهار هو الذى يظهر بظهور الشمس ، ولكن التعبير القرآنى تعبير مجازى حيث نسب التجلّى إلى النهار ، لا إلى الشمس ، باعتبار وجود التجلى فى زمن النهار ، كأن تقول : نهاره صائم ، فتنسب الصوم إلى النهار ، وإنما الصوم واقع فى زمن النهار . أو جلّى الأرض ، وإن لم يجر لها ذكر ، للعلم بها .

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ أى يغطى الليلُ ضوءَ الشمس ، فتغيب

وتظلم الآفاق ، فالأرض كما هو معلوم تدور حول الشمس ، فالجزء الذى لا يقع فى مواجهة الشمس يبدو مظلماً واقعاً فى الليل ، فيصير ليلاً ، فأسند التغشية إلى الليل ، وهى واقعة فى الليل ، على سبيل المجاز كالآية السابقة .

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾ أى ومن بناها على غاية العظم ونهاية العلو ، وهو الله سبحانه ، وفضل هنا التعبير بـ(ما) على (من) لأن السؤال هنا عن الصفة ، عن صفة من يعقل ، كأنه قال : والقادر العظيم الشأن الذى بناها ، وكذلك فى قوله :

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ أى ومن بسطها من كل جانب على الماء حتى يعيش أهلها . والطحو بمعنى البسط .

فالله أقسم بالشمس وهى أشرف المحسوسات شرفاً ونفعاً ، ووصفها بأوصافها الأربعة ؛ وهى ضوؤها ، وكونها متبوعة للقمر ، ومتجلية عند ارتفاع النهار ، ومختفية بالليل ، ثم أقسم بالسماء ، وهى مسار الشمس وأعظم منها ، فقد نبه على عظمة شأنهما ؛ لأن القسم بالشيء تعظيم له .

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾ ومن أنشأها وأبدعها ، وتنكير «نفس» هنا للتفخيم ؛ لأن المراد نفس آدم عليه السلام ، أو إرادة التكثير أى كل نفس .

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ الفجور : شق ستر الديانة ،

وقدم الفجور على التقوى ؛ لشدة الاهتمام بنفيه ؛ لأنه إذا انتفى الفجور وجدت التقوى ، فقدم ما هم بشأنه أعنى ، والمعنى : أفهم النفسَ الخيرَ والشر ، والحسنَ والقبيح ، وما يؤدى إليه كل منهما ، ومكنها من اختيار ما تهوى .

يقول بعض العلماء ، الإلهام لا يكون إلا فى الخير ، فلا يقال : ألهمنى الله الشر ، أو ألهمنى القبيح ، وأما قوله تعالى : ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ، ألهمها فجورها لتجتنبه لا لتعمل به ، وألهمها تقواها لتعمل به ؛ إذ ليس فى كلام الله تعالى تناقض أبداً . والله لا يأمر بالفحشاء ، وكما لا يأمر بالفحشاء ، لا يلهم بها ، وإلا ما قامت الحجة لله على العبد .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ هذه الآية جواب قسم عن «الشمس وضحاها ... إلخ ، وحذف لام القسم ولم يقل : لقد أفلح ، لطول الكلام عوضاً عن اللام .

وأصل الزكاة : الزيادة والنمو ، فأراد تزكية النفس وتنميتها بالخيرات والبركات .

والمعنى : قد فاز بكل مطلوب ، ونجا من كل مكروه ، وأظهرها بالتقوى ، فأهل الصلاح يظهرون أنفسهم ، بملازمتهم مواضع الطاعات ، ومحافل الخيرات ، بخلاف أهل الفسق فإنهم يخفون أنفسهم ، ويضعونها فى الأماكن الخفية فلا تلوح عليهم السعادة ،

ولا يشتهرون بها بين عباد الله المقربين . وأصل هذا أن أجواد العرب كانوا ينزلون فى أرفع المواضع ، ويوقدون النار للطارقين لتكون أشهر ، واللئام ينزلون الأطراف والأماكن البعيدة ، حتى تخفى أماكنهم عن الطالبين . والمعنى : قد أفلح من طهر نفسه من المخالفات الشرعية عقيدة وخلقاً ، وعملاً وقولاً .

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ أى خسر من أخفى نفسه فى المعاصى والفجور ، وتركها على سجيتها ترتع فى الشهوات دون رادع أو خوف ، ومن يقترف هذه المعاصى فقد حرم نفسه من الفلاح ؛ وذلك لأنه اتبع هواه ، وساعد نفسه على شهواتها ، وأعمالها وأقوالها ، ولم يزكها بالمجاهدة والإصلاح ، والتدسية : النقص والإخفاء بالفجور .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ١١﴾ أى كذبت قبيلة ثمود نبيّها صالحا عليه السلام بسبب طغيانها ، فحذف المفعول للعلم به ، فكذبت بما أوعدت به من العذاب الطاغى المتجاوز عن الحد وهو الصيحة ﴿ فأمَّا ثَمُودُ فأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ أى بصيحة ذات طغيان .

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ١٢﴾ أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف ، حين تصدى لعقر الناقة ؛ امتثالاً لأمر من بعثه ، وهو وإن كان واحداً إلا أن القرآن عمّم فقال (كَذَّبَتْ ثَمودُ) فأشرك الجميع فى الفعل ؛ لأنهم رضوا بما فعل أشقاهم ، فكأنهم اشتركوا معه .

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾﴾ لما علم صالح عليه السلام ماعزموا عليه من عقر الناقة، قال لهؤلاء الناس، لأفراد قبيلة ثمود: احذروا قتل الناقة، ولا تمنعوها من نصيبها فى الماء ولا تطردوها عنه فى نوبتها، فقد كان لها شرب يوم معلوم، ولهم ولمواشيهم شرب يوم آخر، وكانوا يتضررون من ذلك فهمّوا بعقرها.

وأضاف الناقة إلى الله فقال: (ناقة الله) لتشريفها كما تقول: بيت الله. وقال عن صالح «رسول الله»؛ إيذاناً بوجوب طاعته، وإظهاراً تماديهم فى الطغيان.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾﴾

فكذبوا رسول الله فى وعيده بقوله: ﴿ولا تمسّوها بسوءٍ فيأخذكُمْ عذابٌ قريب﴾ هود ٦٤، فعقروها: أى نحروها، وجمع هنا لرضاهم عن فعله، وقدم التكذيب على العقر؛ لأنه كان سبب العقر، فدمدم عليهم ربهم: أى أطبق عليهم العذاب بالصيحة الهائلة، وتكرار الدال فى (دمدم) للمبالغة فى الإطالة وإطباق العذاب عليهم، بسبب ذنبهم، فسواهم بالأرض تماماً، ولم يفلت واحد منهم صغيراً كان أو كبيراً.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ قال بعض المفسرين: لا يخاف الله عاقبة الدمدمة، ولا يخاف من أحد تبعة، ولا يخاف عاقبة هلاكهم، وذلك أن الله لا يفعل إلا بحق، ومن يفعل الحق لا يخاف عاقبة ولا يبالى ماصنع، وهذا التفسير يدل عليه سياق الآيات، ولذلك هو أرجح من قولهم فى تفسير الآية: لم يخف الذى عقرها عاقبةَ ماصنع، ولا ما يترتب على ذلك من أنواع البلاء والعقاب، مع أن صالحاً أخبرهم بذلك.

سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ أقسم سبحانه بالليل حين يغشى الشمس ويغطيها ويسترها ، أو أقسم بالليل حين يغشى النهار ، أو أقسم بكل ما يمكن أن يواريه الليل بظلامه ، فحذف المفعول به للتعميم حتى يتوهم الذهن ما يريد . والمراد بالليل هنا ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق .

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ أى ظهر وانكشف بطلوع الشمس.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾ أى القادر العظيم القدرة ، الذى خلق صنفى الذكر والأنثى من كل نوع له توالد ، والمعنى : وما خلقه الله ، وجاز إضمار إسم الله ؛ لأنه معلوم لانفراده بالخلق إذ لا خالق سواه ، وقيل : إن المراد بالذكر آدم عليه السلام ، والأنثى حواء لقوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الناسُ إنّا خلقْناكم من ذكرٍ وأُنثى ﴾ .

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ أى أعمالكم مختلفة حسب اختلاف استعداداتكم ، فبعضها حسن نافع وخير صالح ، وبعضها قبيح ضار وشر فاسد . فسعيكم مشتت مفرق ، ومختلف ، لانجذاب بعضكم إلى جانب الروح فيتوجه نحو الخير ؛ لغلبة النورانية فيه ، وبعضكم يميل إلى جانب الجسد فينهمك فى الشر ؛ لغلبة الظلمة عليه، «وشتّى» جمع شتيت ، أى إن مساعيكم أشتات مختلفة ثم يفصّل تلك المساعى المختلفة المشتتة ويبين أحكامها فيقول :

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾

أى أعطى حقوق ماله ، واتقى محارم الله التى نهى عنها ، ومن جملتها المنّ والأذى ، وصدق بالخصلة الحسنى ، وهى كلمة التوحيد ، أو ملة الإسلام ، فسنهيئه ونوفقه للخَصلة التى تؤدى إلى يسر وراحة كدخول الجنة ، وكلٌّ ميسّر لما خلق له . وفيه إشارة إلى أن من طهر نفسه بطاعة الله والإقبال عليه ، وأعرض عن الدنيا ، وصدق فى باطنه بالكلمة الحسنى ، فسنيسره للوصول إلى ذاتنا العليّة . وقيل نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه .

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾

أى وأما من بخل بماله فلم يبذله فى أعمال الخير ، وحبسها عمن لا يحق حبسها عنه ، وزهد فيما عند الله تعالى كأنه مستغن عنه ، وإذا استغنى عن الله فلم يتق ، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة ، فلم يتق ، فالاستغناء يؤدى إلى عدم التقوى ، وكذب دين محمد فلم يدخل فى ملة الإسلام ، فسنهيئه للخَصلة المؤدية إلى الشدة والعسر ، كدخول النار والاصطلاء بنارها .

وأدخلت السين –وهى حرف يدل على التسويف والتراخى– على نيسّره ؛ ليدل بذلك على أن الوعد آجل غير عاجل .

وفيه إشارة إلى أن من بخل بالطاعة والعبادة ، واستغنى عن الإقبال على الله ، وكذب بالحسنى التى أعطيناها له ، من سلامة الأعضاء والجوارح والجاه والمال ، فسنيسره للبعد عنا ، والطرد

واللعن ، ودخول نار جهنم ، وقيل : نزلت فى أبى سفيان ابن حرب .

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾ أى لا يغنى عنه ماله شيئاً من العذاب ، فتكون «ما» نافية ، أو أىّ شىء يغنى عنه ماله الذى يبخل به؟ فما للاستفهام الانكارى . إذا تردى وهلك ومات ، أو تردى وسقط فى حفرة القبر ، أو تردى فى قعر جهنم . وفيه إشارة إلى أنه إذا تردى وتصدى لمخالفتنا ، فأى شىء يمكن أن يخلصه من غضبنا وقهرنا .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أى بيّنا للخلق طريق الهدى وما يؤدى إليه ، كما بيّنا لهم طريق الضلالة وما يؤدى إليه ، وقد وضحنا ذلك بما لا مزيد عليه من أجل الترغيب والترهيب .

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أى التصرف فيهما كيف نشاء ، ومن جملتها التيسير لليسرى ، والتيسير للعسرى .

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ أى خوفتكم يا أهل مكة بنار موصوفة بأنها متلهّبة . وتلظى وصف ؛ إذ لو كانت فعلاً لقال : ناراً تلظت ؛ لأن النار مؤنث ، والضمير يعود عليها ، فيجب تأنيث الفعل ، ولكن المراد بتلظى ، دوام لهيبها ، ونكر النار ؛ لأنه أراد ناراً مخصوصة بالأشقى .

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ أى لا يلازمها ولا يقاسى حرها إلا الكافر ، فإنه أشقى من الفاسق ، فالفاسق لا يدخل النار دخولاً

أبدياً ، ولا يلازمها ، وقد فسر القرآن (الأشقى) بقوله : ﴿ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ (١٦) أى كذب بالحق ، وأعرض عن الطاعة ، وهذه هى صفات الكافر .

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ (١٧) أى سيبتعد عنها بحيث لا يسمع حسيسها . والأتقى هو الذى يتقى الكفر ، والمعاصى ، وبذلك لا يحوم حول النار فضلاً عن دخولها . أما المؤمن الفاسق الذى لم يتب ، فلا يبتعد عن النار كل هذا البعد ؛ بل يدخلها ويذوق حرارتها ، ولكن ليس كما يذوقها الكافر من شدة حرارتها ، وعنف سعيرها ، لكونه فى طبقة أخرى غير طبقة الكافر .

﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ (١٨) أى يصرف ماله فى وجوه البر والخير ، لا يقصد من وراء ذلك إلا أن يكون ماله عند الله نامياً زاكياً ، ولا يريد به رياء ولا سمعة .

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ (١٩) ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (٢٠)

ليس لأحد عنده منّة أو فضل أو نعمة ، حتى يقصد من إعطاء مالِه رد الفضل أو الاعتراف بالمنّة ، لكن فعل ذلك ابتغاء ذات الله وطلب رضاه ، فيستحق الثواب ؛ لأنه لم يفعل ذلك أداء لديْن والمراد بـ(الأعلى) العلىّ الرفيع فوق خلقه بالغلبة والقهر .

والآية نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين اشترى بلال مع جماعة من ضعفاء المسلمين ، وكان المشركون يؤذونهم ليرتدوا عن عن الإسلام ، فاشتراهم أبو بكر فأعتقهم ، ولذلك قالوا المراد بالأشقى أبو جهل ، أو أمية بن خلف .

وفى رواية : مرّ النبى ﷺ ببلال بن رباح الحبشى وهو يقول : أحد أحد ، فقال عليه السلام الأحد ينجيك ، ثم قال لأبى بكر رضى الله عنه إن بلالاً يعذب فى الله ، فعرف مراد النبى ، فانصرف إلى منزله فأخذ رطلاً من ذهب ومضى به إلى أمية بن خلف ، فاشترى منه بلالا وأعتقه ، فقال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عند أبى بكر ، فنزلت الآيات .

وفى الحديث : « يرحم الله أبا بكر : زوّجنى ابنته ، وحمَلنى إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالاً من ماله » وكان عمر بن الخطاب يقول : بلالٌ سيدُنا ومولى سيدِنا . فانظر كيف أدخل الإسلام المولى مع الشريف فى إطار واحد ، فلا يغترّ أحد بنسبه ولا يتفاخر به ، فإن ذلك خارج عن حدالإنصاف ، يقول عليه السلام : « من صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه ، فادعوا له » .

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ . ذلك الأتقى الموصوف بما ذكر من الصفات ، وهو وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل وجه وأجملِه ، حتى يتحقق الرضى فى الدنيا ، وكذلك فى الآخرة من الجنة والزلفى ؛ جزاء على إنفاق ماله ابتغاء وجه اللهِ ، ولم ينزل هذا الوعد إلا لرسول الله ﷺ فى قوله تعالى فى سورة الضحى : ﴿ولسوفَ يُعْطِيكَ ربُّك فترْضى﴾ ولأبى بكر رضى الله عنه فى سورة الليل ﴿ولسوف تَرْضى﴾ ولن يتحقق هذا الرضا ، إلا بفناء المخلوق فى الخالق ، واتصافه بصفات الحق سبحانه وتعالى .



سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ الضحى : ارتفاع الشمس صدر السماء ، وأريد الوقت الذى ترتفع فيه الشمس ، فعبر بالشىء وأراد الزمان ، مجاز علاقته الزمانية .

وخص الضحى بالقسم ؛ لأنه الوقت الذى كلم الله فيه موسى عليه السلام ، وهو أيضاً الوقت الذى أُلقى فيه السحرة سجّدا لقوله تعالى : ﴿ وأنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً ﴾ فكان له بذلك شرف عظيم .

وصلاة الضحى سنة متفق عليها ، ووقتها إذا علت الشمس قبيل وقت الزوال ، أقلها ركعتان ، وأكثرها ثمانى ركعات وهو الذى عليه الأكثرون ، وقد صح أن النبى ﷺ صلى صلاة الضحى يوم فتح مكة ثمانى ركعات .

« والليل إذا سَجَى » أى سكن ظلامه و اشتد ، واستقر على ذلك وقتاً ثم يشرع فى التغيير ، فأسند سكون الظلمة إلى الليل على سبيل المجاز كما تقول : سجا البحر ، إذا سكنت أمواجه ، وليلة ساجية إذا سكنت رياحها . فإسناد السجو إلى البحر مجاز ، وإسناد السجو أو السكون إلى الليل مجاز .

أو سجا أهله ، مجاز أيضاً من إسناد الفعل إلى زمانه وهو الليل .

أما إذا أريد بالليل إذا سجى : ركود الظلام واستقراره ، وتناهيه

فى الظلمة بحيث لا يزداد بعد ذلك فهو عندئذ يكون جارياً على الحقيقة لا على المجاز .

يقول بعض أئمة التفسير : إن المراد بالضحى هو الوقت الذى كلم الله فيه موسى ، وبالليل : ليلة المعراج .

فإن قيل : ما السبب فى أنه ذكر الضحى وهو ساعة من النهار ، وذكر الليل بأسره ؟

أجيب بأنه وإن كان ساعة من النهار إلا أنه يوازى جميع الليل ، كما أن محمداً عليه السلام يوازى جميع الأنبياء عليهم السلام ، وبأن النهار وقت السرور ، والليل وقت الوحشة ، فهو إشارة إلى أن هموم الدنيا أكثر من سرورها ، فإن الضحى ساعة ، والليل ساعات .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ﴿٣﴾ هذه الآية جواب القسم عن الآيتين السابقتين ، والتوديع هو الترك ، فمن ودعك مفارقاً فقد بالغ فى تركك . فأصل التوديع من الدّعة ، وهو أن ندعو للمسافر بأن يتحمل الله عنه كآبة السفر ، وأن يبلغه الدعة والخفض . والمعنىّ : ما قطعك الله قطع المودع ، وما تركك حين تأخر الوحى عليك ، وإنما أنت كريم على الله ، قريب منه . فقد شبه عدم الترك وعدم القطيعة بعدم التوديع على سبيل الاستعارة والمجاز .

« وما قلى » القلى : شدة البغض ، فكان المقلوّ هو الذى يبعده القلب من بغضه فلا يقبله ، أى وما أبغضك ربك .

روى أن يهود المدينة أرسلوا إلى مشركى قريشاً أن يسألوا محمداً عن أصحاب الكهف ، وعن قصة ذى القرنين ، وعن الروح ، فإن أخبركم عن أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين ، ولم يخبركم عن أمر الروح فاعلموا أنه صادق ، فسألوه عنها ، فقال عليه السلام لهم : ارجعوا سأخبركم غداً ، ولم يقل إن شاء الله ، فانقطع الوحى عنه أياماً ، فقال المشركون : إن محمداً ودّعه ربه وقلاه ، فشكا عليه السلام ذلك إلى خديجة ، فقالت خديجة : لعل ربك قد قلاك ، فنزل جبريل بقوله تعالى : ﴿ولا تقولَنّ لشىءٍ إنى فاعلٌ ذلك غداً إلّا أنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فأخبره بما سئل عنه . وفى ذلك رد على المشركين ، وتبشير له عليه السلام بأن الحبيب لا يقلى حبيبه ، وأنه تعالى يواصله بالوحى والكرامة فى الدنيا ، وبما هو أعظم وأجل فى الآخرة .

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ الأولى الدنيا ؛ لأنها خلقت قبل الآخرة ، فهى فانية مشوبة بالمضار ، بخلاف الآخرة ، فهى باقية صافية من الشوائب على الإطلاق .

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ جمع بين اللام وسوف ؛ للدلالة على أن الإعطاء كائن لا محالة وإن تراخى لحكمة ، وترضى بما يعطيك الله ويمنحك إياه بما يطمئن به قلبك .

روى أن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة رضى الله عنها ، وعليها كساء من وبر الإبل ، وهى تطحن بيدها وترضع ولدها ، فدمعت عيناه لمّا أبصرها ، فقال يا بنتاه : تحملى مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة ، فقد أنزل الله ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ .

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ اليتيم من مات أبواه، والمأوى: كل مكان يأوى إليه شيء، ليلا أو نهاراً، أى عرفك الله يتيماً فجعل لك مأوى تأوى إليه .

ولد رسول الله ﷺ وكان مع جده عبد المطلب ومع أمه آمنة، فهلكت أمه وهو ابن ست سنين، ثم مات جده بعد أمه وعمره ثمان سنين، ولما أشرف جده على الموت أوصى عليه عمه أبا طالب؛ لأن أبا طالب عمه، وعبد الله أباه كانا من أم واحدة، فتكفل به عمه إلى أن بعثه الله للنبوة، وكان ينصره فى كل المواقف إلى أن توفى أبو طالب، فنال منه المشركون وآذوه، فكان عليه السلام يقول: كنت يتيماً فى الصغر، وغريباً فى الكبر، وكان يحب الأيتام ويحسن إليهم .

وإنما جعله الله يتيماً حتى لا يسبق إلى وهم أحد، أن ما ناله من الشرف والنبوة كان عن حظوة ونسب أو توارث مال، أو نحو ذلك .

وفى الكشاف: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَـآوَى﴾ أنه من قولهم: درّة يتيمة، والمعنى ألم يجدك واحداً فى قريش عديم النظير فى العز والشرف، فآواك فى دار أعدائك، فكنت بين القوم معصوماً محروساً .

وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ أى فاقداً للشرائع، خالياً عن الأحكام التى تهتدى إليها العقول؛ بل طريقها السماع كما فى قوله تعالى:

﴿ما كنت تَدْرِى مَا الكتابُ ولَا الإيمانُ﴾ الشورى٥٢ ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً، ولذا نسب الضلال إلى الأنبياء وإلى الكفار على حدّ سواء، وإن كان بين هذا الضلال وذاك بون كبير، ألا ترى أن الله تعالى قال فى حق النبى ﷺ ﴿ووجدك ضالّا فهدى﴾ أى غير مهتد إلى ما سبق إليك من النبوة، وقال فى حق موسى ﴿قال فعلتها إذاً وأنا من الضّالّين﴾ وقال إخوة يوسف عن أبيهم يعقوب ﴿إن أبانا لَفِى ضلالٍ مُبين﴾ تنبيهاً على أن ذلك سهو منهم.

فهداك بعد ذلك إلى منهاج الشريعة الإسلامية مما أوحى إليك من الكتاب المبين، وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ أى ووجدك فقيراً فأغناك بما أفاء عليك من الغنائم، حتى كان عليه السلام يهب المائة من الإبل. يقول عليه السلام: «ليس الغِنَى عن كثرة العَرض، ولكنّ الغنى غنى النفس».

يقول الإمام القشيرى رحمه الله: غنى الناس قسمان، فمنهم من يغنيهم الله بتنمية أموالهم وهم العوام، ومنهم من يغنيهم الله بتصفية نفوسهم من الحقد والحسد والبغضاء، وهو الغنى الحقيقى؛ لأن احتياج الخلق إلى همة صاحب النفس العالية أكثر من احتياجهم إلى نعمة صاحب المال. والمراد من تعداد هذه النعم ليس الامتنان؛ بل لتقوية قلبه عليه السلام للاطمئنان بعد التوديع.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ أى لا تغلبه على ماله وحقه لضعفه، وكانت العرب تأخذ أموال اليتامى وتظلمهم حقوقهم، وقال مجاهد:

لا تقهر ، أى لا تحتقر ، فإن له ربًّا ينصره وقرىء : فلا تكهر بالكاف ، أى فلا تعبس فى وجهه .

وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ أى لا تزجره ولا تغلظ له القول ؛ بل رده رداً جميلاً ، وسبب نزول هذه الآية : أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أهدى إلى رسول الله عنقود عنب ، فجاءه سائل فأعطاه إياه ، وباعه لعثمان بدرهم ، فقدمه عثمان إلى رسول الله ثانية ، ثم عاد السائل فأعطاه ، ففعل ذلك ثالثة ، فقال عليه السلام ملاطفاً للسائل لا غضبان : أسائل أنت يا فلان أم تاجر ؟ فنزلت .

وتقديم المفعول على الفعل فى قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ليس للاختصاص، إذ ليس المقصود أن عدم القهر لليتيم فقط، فيجوز أن نقهر غير اليتيم، وعدم الانتهار يكون للسائل فقط، فيجوز أن ننهر غير السائل، فالإسلام لا يقبل هذا ولا يرتضيه، وإنما هو من باب الإرشاد والتوجيه والاهتمام بأمر اليتيم؛ لضعف حاله وقلة حيلته، وكذلك السائل؛ لانكسار قلبه وخضوع جوانحه، فأراد القرآن أن يحثنا على التلطف معهم ، والترفق بهم ، والاهتمام بشأنهم.

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ أن يتحدث الإنسان بنعمة ربه التى أفاضها عليه ، فالحديث بالنعم شكر ، وتركه كفر كما يقول رسول الله ﷺ ، فلا تنس فضل الله عليك قديماً وحديثاً . وأما قول الرسول ﷺ « عليكم بكتمان النعم ، فإن كل ذى نعمة محسود » أى نكتمها عن الحاسد لا غير . والله أعلم .

سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ الشرح: البسط، وشرح الكلام: بسطه وإظهار ما يخفى من معانيه، ومنه شرح الصدر بالنور الإلٰهى، فإذا دخل النور فى القلب انشرح واتسع، أى احتمل البلاء، ولم يضق بالسفاهات، كما قال موسى عليه السلام: (ربّ اشرحْ لِى صَدْرِى) أى وسع قلبى حتى لا يضيق بجدال المعاندين ولجاجهم، والاستفهام هنا تقريرى بمعنى: بلى قد شرحنا لك صدرك، وفَسَحْناه حتى حوى عالم الغيب والشهادة. وفى بعض كتب التفسير أن الآية تشير إلى انفساح صدر قلبه بنور النبوة وحمل همومها بواسطة دعوة الثقلين من الإنس والجن، واحتمال مكاره الكفار وأهل النفاق.

وأما شرح الصدر الفعلى فقد وقع للنبى عليه السلام وهو ابن خمس سنوات، لإخراج مغمز الشيطان، وهو الدم الأسود الذى بسببه يميل القلب إلى المعاصى، ويعرض عن الطاعات.

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ أى أسقطنا عنك حملك الثقيل، وقدم «عنك» على المفعول الصريح وهو (وِزْرَك) قصداً إلى تعجيل المسرة، وتشويقاً إلى ما يجيء بعده.

الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ فإن ثقل الحمل إذا وضع على الرحل أحدث صوتاً؛ لما لهذا الثقل من تأثير يفضى إلى تخلخل بعض أجزاء

الرحل وانحرافها عن مجالها، فيحصل الصوت لذلك، مثل حال النبى ﷺ مما كان يثقل عليه ويزيده هما؛ وذلك لتهالكه على إسلام المعاندين من قومه، وتلهفه على طاعتهم لله، فتسبب له ذلك كثيراً من القلق والنصب، وربما يراد بقوله تعالى: ﴿ووضعْنا عنكَ وِزْرك﴾ الكناية عن عصمته من الذنوب، وتطهيره من الأدناس.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ حيث اقترن اسمه باسم الله، فى كلمة الشهادة والأذان والإقامة، وفيه يقول حسان بن ثابت:

وضمّ الإلـهُ اسم النبى إلى اسمه   إذا قال فى الخمس المؤذّنُ أشْهَدُ

وجعل طاعة الرسول من طاعة الله، وصلى عليه هو وملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، وسمى رسول الله، ونبىّ الله وغير ذلك من الألقاب الشريفة، وهل هناك ذكر أرفع من ذلك؟ وبذلك الرفع كنت سيد الكل فارْض بالقضاء، واصبر على البلاء، واشكر على النعماء، فإن عسر الابتلاء بالبلايا المؤدى إلى اضطراب صدرك، مع الامتلاء بالعطايا المفضى إلى اطمئنان روحك، هو اليسر مع العسر، وهكذا جرت سنّتنا، ولن تجد لسنتنا تبديلا.

يقول بعض المفسرين: (ورفعنا لك ذكرك) أعطيناك ثمانية أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصلاة، والصدقة، وصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأرسلناك للناس كافة بشيراً ونذيراً.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ هذا الوعد باليسر المرافق للعسر وعد كريم من الله بتيسير كل عسير له عليه السلام وللمؤمنين، وذلك لأن المشركين كانوا يعيّرون رسول الله والمؤمنين بالفقر والضيق، فسبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم، فذكر الله نبيه بما أنعم به عليه ومن جلائل النعم، فكن -إذن يا محمد- على ثقة بفضل الله ولطفه، فإن مع العسر يسراً كثيراً .

ونلحظ هنا أن كلمة « العسر » جاءت معرفة بأل ؛ لأن العسر فى الدنيا معروف معهود ، وجاءت كلمة « يسراً » منكرة ؛ لأن اليسر مجهول مبهم لا يدركه أحد .

ومعنى التنكير : التفخيم ، كأنه قيل : إن مع العسر يسراً عظيماً ، وأىّ يسر !

وكرر (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) لإفادة التأكيد وتقرير معناه فى النفوس ، وتمكينه فى القلوب ، إلا أن العسر كرر بالتعريف فيكون العسر الثانى هو عين الأول ، و« اليسر » كرر بالتنكير ، فأفاد أن المراد بالثانى مغاير للأول ، فهذا التكرار من العسر واليسر ، يفيد أن معنا عسرا واحد ، ويسرين ؛ «ولن يغلب عسرٌ يُسرين» كما يقول ﷺ ، أى لن يغلب عسر الدنيا يسرَىْ الدنيا والآخرة .

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧﴾ أى إذا فرغت من تلقى الوحى ،

فانصب فى تبليغه ، أو إذا فرغت من التبليغ فانصب بالاجتهاد فى العبادة ، وشكر الله لما أولاك من النعم ، أو إذا فرغت من الصلاة فانصب فى الدعاء ، وكلها مقبول وجائز .

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ ﴿٨﴾ أى إلى الله وحده يكون اعتمادك وسؤالك ، فإنه القادر على إسعافك لا غيره ، وأن تحرص على ذلك كل الحرص ؛ لأن فى الرغبة والالتفات إلى غير الرب احتجاباً وبُعْدًا عن الله .

يقول الشاعر :

ولربّ نازلة يضيق بها الفتى ... ذَرعاً وعند الله منها المخرجُ
كَمُلت فلما استحكمتْ حلقاتها ... فُرجت وكنت أظنها لا تُفْرَجُ

وفى الحديث : من قرأ سورة : ألم نشرح فكأنما جاءنى وأنا مغتمّ ، ففرّج عنى .

سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ هما هذا التين الذى يؤكل ، وهذا الزيتون الذى يعصر منه الزيت ، وأقسم اللّه ﷻ بهما خاصة من بين الثمار ؛ لاختصاصهما بفوائد جليلة ، فإن التين فاكهة طيبة ، وغذاء لطيف ، سريع الهضم ، ودواء كثير النفع يحلّل البلغم ويطهر الكليتين ، ويزيل ما فى المثانة من الرمل . روى أبو ذرّ رضى الله عنه أنه أهدى للنبى عليه السلام سلّة من تين ، فأكل منه وقال لأصحابه : كلوا ... فإنها تقطع البواسير وتنفع من النِقْرِس » .

وأما الزيتون فهو إدام ودواء ، وزيته كثير الفائدة جمّ المنفعة ، وشجرته هى الشجرة المباركة المشهورة فى التنزيل بقوله تعالى : ﴿ ... الزجاجةُ كأنّها كوكبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَاركةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّة يكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ النور ٣٥ ومر معاذ بن جبل رضى الله عنه بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيباً واستاك به ، وقال : سمعت النبى عليه السلام يقول : « نعْم سواكُ الزيتون هو سواكى ، وسواك الأنبياء من قبلى » ، ومن خواصها أنه تصبر عن الماء طويلاً كالنخل ، يقول ابن سيرين مفسر الأحلام المشهور : « إن التين فى النوم خير كثير وغنى وفير ، فمن ناله فى المنام نال مالاً وسعة ، ومن أكله رزقه الله أولاداً ، ومن أخذ من

ورق الزيتون فى المنام استمسك بالعروة الوثقى» أى استمسك بدينه كمن استمسك بعقدة حبل متين يتدلى من علٍ، فلا يهوى على الأرض.

يقول الطبرى: المراد بالتين: جبل الصالحية بدمشق، والزيتون هو الجبل الذى يلى بيت المقدس من جهة الشرق.

وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ هو الجبل الذى ناجى موسى عليه السلام ربّه، يقول الماوردى: ليس كل جبل يقال له: طُور، إلا أن يكون فيه الأشجار والثمار، وإلا فهو جبل فقط. وسينين بالسريانية معناها: الموضع ذو الشجر، وفى الحبشة معناها: الموضع الحسن، ولكن جاء فى كشف الأسرار أن أصل سينين سيناء وإنما يقال: سينين، كما قال فى الصافات ﴿سلامٌ عَلَى إِلْيَاسِين﴾ وهو إلياس، مراعاة للفواصل القرآنية.

وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ أى الآمن، وهو مكة شرّفها الله تعالى، ويحفظ كل من دخلها فى الجاهلية أو الإسلام، مِنْ قتلٍ أو سبى كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه.

ومعنى القسم بهذه الأشياء: إظهار شرف هذه البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصالحين، فمولد عيسى ومنشوه فى منبت «التين والزيتون» و«الطور» المكان الذى نودى فيه موسى عليه السلام، و«مكة» مولد الرسول عليه السلام ومبعثه.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ التقويم : تصيير الشيء على ما ينبغى أن يكون عليه من التأليف والتعديل وحسن الصورة ، وهو إشارة إلى ما خص الله به الإنسان من بين الحيوان من العقل والفهم وانتصاب القامة .

والمعنى : لقد خلقنا كل إنسان فى أحسن ما يكون من التقويم والتعديل صورة ومعنى ، حيث يراه تعالى مستوى القامة ، متناسب الأعضاء ، حسن الشكل والصورة ، ووهبه من الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام ، وفى الجملة أعطاه صورته الإلٓهية ، يقول عليه السلام : « خلق الله آدمَ على صورته » .

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾ أى جعلناه من أهل النار ، الذى هو أقبح من كل قبيح وأسفل من كل سافل ؛ لأنه عدل عن الصفات التى خلقناه عليها ، ولو تمسك بها لكان فى أعلى عليين . ولكنه انغمس فى بحار الشهوات الحيوانية ، وانهمك فى ظلمات اللذات الجسمانية ، وقيل : رددناه إلى أرذل العمر ، وهو الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، فتقوس ظهره بعد اعتدال ، وابيضَّ شعره بعد سواد ، وكلَّ سمعه وبصره وتغير منه كل شيء . يقول بعض المفسرين : (أسفلِ سافلين)السافلون هم الضعفاء من المرضى والزمنى والأطفال ، فالشيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعاً .

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾

أى آمنوا إيماناً صادقاً يؤجرون عليه ، وفى الحديث : « طُوبَى لمن طال عمره وحسن عمله » فهم يثابون على عملهم الصالح بدخول الجنة ، ويؤجرون عليه أجراً متصلا غير منقطع ، جزاء على طاعتهم وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم ، وعلى مقاساة المشاق ، والقيام بالعبادة على ضعف قوتهم وأبدانهم .

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ الاستفهام هنا مشعر بالتعجبْ ، أى فأى شىء يجعلهم يتهمونك بالكذب ، بعد ما أظهر الله كمال قدرته ، من خلق الإنسان السوىّ من الماء المهين ، وجعل ظاهره وباطنه على أحسن تقويم ، ثم نكسه حين بلغ أرذل العمر ، إن من يقدر على ذلك لا شك أنه قادر على البعث والحساب والجزاء ، إذن فما الذى يجعلك تكذّب بعد هذا الدليل القاطع ؟ وهو خطاب للإنسان على طريقة الالتفات .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ لا شك أن من يقدر على خلق الإنسان ، لابد أن يكون حكيماً فى صنعه وتدبيره ، وقادراً على الإعادة والجزاء .

أو يكون المعنى : أليس الله بأقضى القضاة يحكم بينك يارسول الله وبين من يكذبك بالحق والعدل ، وفى ذلك وعيد للمكذبين ، وأنه يحكم عليهم بما هم أهله ، وكان عليه السلام إذا قرأ هذه الآية يقول : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين .

سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ اقرأ يا محمد ما يوحى إليك ، فنحن لا نكلفك إلا بما تطيق ، وعن عائشة رضى الله عنها : «أول ما ابتدىء به النبى ﷺ من النبوة الرؤيا الصالحة ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، وإنما ابتدى عليه السلام بالرؤيا ؛ لئلا يفجأه الملك الذى هو جبريل بالرسالة ، فلا تتحملها القوة البشرية ؛ لأنها لا تحتمل رؤيته وإن كان على غير صورته الأصلية ، ولا على سماع صوته ، ولا على ما يخبر به ، فكانت الرؤيا أنسا وتطميناً له ، ثم جاءه جبريل فعبر به من عالم الرؤيا إلى عالم المثال ، ثم أوحى إليه فى اليقظة فى شهر رمضان ، وكان عليه السلام فى تلك المدة إذا خلا بنفسه ، يسمع نداء : يا محمد يا محمد . ويرى نوراً . وكان يخشى أن يكون الذى يناديه تابعاً من الجن كما ينادَى الكهنة ، وكان الرسول يتحنث فى غار حراء ، ويتزود لذلك بشىء من الطعام ، وأول من تعبد فى هذا الغار من قريش جده عبد المطلب ، ثم تبعه بعض المتقين كأبى أمية ابن المغيرة ، وورقة بن نوفل ، ونحوهما ، وكان ورقة ابن عم خديجة رضى الله عنها ، يقرأ الكتب المقدسة ، وقد عمى فى أواخر عمره ، وعند بلوغ الرسول ﷺ سن الأربعين فى السابع عشر من رمضان ، جاءه جبريل وهو فى الغار . ورجع إلى خديجة يرجف فؤاده يحدثها بما جرى ، فانطلقت به إلى ورقة فأخبرته بذلك . ومكث عليه السلام

مدة لا يرى جبريل مرة أخرى . هذه الفترة التى لم يظهر فيها الوحى للنبى عليه السلام، هى الفترة بين نزول ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَق ﴾ وبين نزول قوله تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ فظهر حينئذ الفرق بين النبوة والرسالة .

وذكر اسم الله مبتدئاً به القراءة يعطيه من القوة والأُنس بمولاه ، مايفضى به إلى الأُنس بما يقرأ ، ليس بلسانه فقط وإنما بجنانه أيضاً ، وكلمة « باسم » ننطقها بثلاثة أحرف : الباء التى تفيد برّ الله على المؤمنين بأنواع الكرامات فى الدنيا والآخرة ، والسين ، فى كون الله سميعاً لدعاء الخلق أجمعين ، والميم فهو مالك للكون كله من العرش إلى ماتحت الثرى .

قال : (الذى خلق) ولم يذكر له مفعولا ، ثم قال : (خلق الإنسان) قلت : هو على وجهين :

إما أن لا يقدر له مفعول ، ويكون المراد : أنه الذى حصل منه الخلْق واستأثر به فلا خالق سواه .

وإما يقدر له مفعول ، أى خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق .

ثم ذكر أول نعمه (الذى خلق) وهى خلق الإنسان وإيجاده من العدم ، ومن يقدر على خلق الإنسان ، لاريب أنه قادر على تعليمه القراءة والتلاوة ، وترديد ما يلقيه إليه الوحى .

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ خص خلق الإنسان بالذكر من

بين سائر المخلوقات ؛ تفخيماً لشأنه ؛ إذ هو أشرف الخلق قاطبة ، وعليه نزل التنزيل ، وهو المأمور بالقراءة .

والعلَق : جمع علَقة ، وهى الدم الجامد ؛ لبيان كمال قدرته تعالى ، لإظهار الفرق العظيم بين حالته الأولى من العلقة ، وحالته الأخيرة من كونه إنساناً سويا .

يقول أحد المفسرين : « لما أراد الله أن يبعث محمداً إلى المشركين ، لو قال له : اقرأ باسم ربك الذى لا شريك له ، لأبَوْا أن يقبلوا ذلك منه ، ولكن الله مهّد إلى الاعتراف به ، حيث أمر رسوله أن يقول لهم ، إنهم هم الذين خُلقوا من العلقة ولا يمكنهم إنكار ذلك ، ولابد للفعل من فاعل ، ولا يمكنهم أيضاً أن يضيفوا الخلق إلى الوثن ؛ لعلمهم أنهم هم الذين نحتوه ، فبهذا التدرج فى المنطق يقرّون بأنّى أنا المستحق للثناء دون الأوثان ؛ لأن من لم يخلق شيئاً كيف يكون إلٓهاً مستحقاً للعبادة ؟

ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ أى افعل ما أمرت به ، وكرر الأمر بالقراءة تأكيداً لها ، وتمهيداً لما يعقبه من قوله (وربُّك الأكرم) أى الزائد فى الكرم على كل كريم ، فإن الله يُنعم بلا غرض ، ولا يطلب مدحاً من أحد ، أو تخلصاً من مذمة أحد .

ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ أى علّم ما علم بواسطة القلم لا غيره ، وفى ذلك ما فيه من الامتنان على الإنسان بتعليمه الخط والكتابة بالقلم ، فلولا القلم ما استقامت أمور الدين والدنيا .

يقول بعض المفسرين : وجه المناسبة بين الخلق من العلق وتعليم القلم ، أن أدنى مراتب الإنسان كونه علقة ، وأعلاها كونه عالماً ، فالله يمتن على الإنسان بنقله من أدنى المراتب إلى أعلاها ، أى من العلقة إلى تعلُّم العلم .

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ من الأمور الكلية والجزئية ، والجليّة والخفية ، وكل ما لم يخطر على باله أصلاً ، فإن قلت : إذا كان الأمر كذلك ، فلِمَ لمْ يعلّم الله رسولَه الكتابة ؟ قلنا : لو كتب ، لقيل : قرأ القرآن من صحف الأولين .

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ « كلا » ردع لمن كفر بنعمة الله عليه فطغى ، وتجاوز الحد ، واستكبر على ربه ، قيل : نزلت هذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة فى أبى جهل ، وهو الظاهر .

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ فالإنسان يطغى لأن رأى وعلّم نفسه مستغنياً عن خالقه !! يقول ابن مسعود رضى الله عنه : منهومان لا يشبعان : طالب العلم وطالب الدنيا ، ولا يستويان : أما طالب العلم فيزداد فى أرض الله ، وأما طالب الدنيا فيزداد فى الطغيان ، وسبب طغيانه أن يرى نفسه مستغنياً .

وأول هذه السورة يدل على مدح العلم ، وآخرها على مذمة المال ، وكفى بذلك ترغيباً فى العلم والدين ، وتنفيراً من المال والدنيا .

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ قدم هنا (إلى ربك) ليفيد رجوع

الكل بالموت والبعث إلى الله سبحانه ، لا إلى غيره . وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، حيث ذكر الإنسان فى قوله : (رآه) غائباً أى رأى الإنسان نفسه مستغنياً ، ثم قال : (إلى ربك) والقصد من ذلك التهديد والتحذير من عاقبة الطغيان ، ويقال إنها نزلت فى أبى جهل .

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ الاستفهام هنا للتعجب من كل من يأتى من الرؤية ، ونكّر «عبداً» لتفخيمه عليه السلام كأنه قال متعجباً : ينهى أكمل الخلق فى العبودية عن عبادة الله ، يروى أن أبا جهل قال فى ملأ من طغاة قريش ، لئن رأيت محمداً يصلّى لأطأنّ عنقه ، فنزلت ، فقال عليه السلام : «والذى نفسى بيده لو دنا لاختطفته الملائكة عضواً عضوا» وكان أبو جهل يكنى بأبى الحكم ؛ لأنهم كانوا يزعمون أنه عالم ذو حكمة ، ثم سمى فى الإسلام أبا جهل .

أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ فما ظنك أيها الناهى إن كان هذا الذى تنهاه على طريقته المستقيمة فى فعله ، وتزجره وتتوعده على صلاته ، أو أمره بالتقوى من عبادة الأصنام بأنه على الحق . والآية فى حقيقتها تهكم مرير بالناهى ، ضرورة أن ليس فى النهى عن عبادته تعالى ، والأمر بعبادة الأصنام على هدًى البتّة .

أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أى أما علم ذلك الناهى لهذا المهتدى أن الله يراه ، ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله المكذب

للحق ، المعرض عن الصواب ، فالله مطّلع على جميع أفعاله وأقواله ولذلك يقول جل شأنه ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ فالآية وإن نزلت فى أبى جهل إلا أنها عظة لجميع الناس، وتهديد لمن يمنع عن الطاعة والعبادة.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾ ردع لأبى جهل وزجر لتصرفه ، فإن لم يرجع عما هو فيه من العناد والشقاق ، ولم يتب أو يسلم قبل الموت، لنجذبنّه بعنف من مقدم رأسه ، أى لنأمر الزبانية ليأخذوا بناصيته ويسحبوه إلى النار ، محتقراً مهاناً ، فقد كانت العرب تأنف من جر الناصية ، لما فيها من القهر والهوان ، وكنى هنا بالناصية عن الوجه والرأس ، وخص أيضاً السفع بالناصية ؛ لأن أبا جهل كان شديد الاهتمام بترجيل ناصيته وتطييبها . والسفع : القبض على الشىء وجذبه بشدة .

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ وصف الناصية بالكذب والخطأ ، والناصية لاتوصف بذلك ، وإنما يوصف صاحب الناصية بهذه الأوصاف ، ففيها مجاز فى الإسناد .

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أهل ناديه ومجلسه ، وهو المكان الذى يجتمع فيه القوم للتشاور .

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ أى ملائكة العذاب ليجروه إلى النار ، والزبانية من «الزّبْن» وهو الدفع، لأنهم يَزْبِنُون الكفار ، ويدفعونهم إلى جهنم بشدة .

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ١٩﴾ زجر بعد زجر لأبى جهل، فلا تطعه، ودم على ما انت عليه من العبادة، وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث به، وتقرب بذلك السجود إلى ربك. وفى الحديث: «أقرب مايكون العبد من ربه إذا سجد، فأكثروا من الدعاء فى السجود» وقرأ عليه السلام فى قوله (واسجد واقترب) «أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك» أى بذاتك من ذاتك، وهو معنى اقترابه بالسجود.

سورة القدر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾ افتتح السورة بالجملة الاسمية فقال (إنّا أنزلناه) لاعتبارين : الأول : تعظيم الله جل شأنه ، والثانى إسناد الإنزال إليه ، مع أنه أنزل بواسطة جبريل ، فالتقديم هنا ليفيد أن تنزيل القرآن من الله ، لا من جبريل ولا من أحد من الملائكة ، والضمير فى (أنزلناه) للقرآن ، وذلك لشهرته ، فلا حاجة لذكره صريحاً ؛ لأنه حاضر فى جميع الأذهان .

والقرآن لم ينزل جملة واحدة ، بل نزل مفرقاً فى ثلاث وعشرين سنة ، وسورة القدر من جملة ما أنزل ، وهذا لا ينافى ماجاء فى الآية الكريمة ، من أنه أنزل ليلة القدر ؛ لأن المراد أن جبريل نزل به جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، وأملاه على الملائكة الكاتبين ، ثم كان ينزل على النبى ﷺ منجّما على حسب الحادثة ، وكان ابتداء تنزيله فى تلك الليلة ، وفى نزول القرآن منجّما مفرقاً بالتدريج تعظيم لشأن محمد ﷺ ، كما تدخل الهدايا شيئاً فشيئاً على أيدى الخدم تعظيماً للمهدى إليه ، إن صح هذا التشبيه . وفيه أيضاً تسهيل للحفظ ، وتثبيت لفؤاد الرسول ، كما قال تعالى : ﴿وقال الذين كفروا لَوْلا نُزّل عليه القرآنُ جملةً واحدة كذلك لنثَبّتَ به فؤادَك﴾ .

وسميت هذه الليلة بليلة القدر ، لتقدير الأمور فيها ، وهى ليلة مباركة كما وصفها القرآن : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيلةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ وقوله بعد ذلك ﴿ فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ . وإما لخطرها وشرفها على سائر الليالى ، فالقدر بمعنى المنزلة والشرف .

والحكمة فى إنزال القرآن ليلاً ، أن أكثر الكرامات ، ونزول النفحات ، والإسراء إلى السموات يكون بالليل ، والليل من الجنة –كما يقال– لأنه محل الاستراحة . بخلاف النهار ؛ لأن فيه المعاش والتعب ، وعبادة الليل أفضل من عبادة النهار ؛ لأن قلب الإنسان فيه أجمع ، والمقصود هو حضور القلب .

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ ﴾ وأى شىء أعلمك يا محمد كنهها ؟ فعلو قدرها خارج عن إدراك الخلق ، ولا يعلمها إلا علّام الغيوب ، وفى هذا تعظيم للوقت الذى أنزل فيه القرآن .

﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ ﴾، أى أن القيام والعبادة فى ليلة القدر ، أفضلُ وأعظم قدراً وأكثر أجراً من تلك المدة ، وفى الحديث النبوى : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

واختلفوا فى وقتها ، فبعضهم على أنها فى شهر رمضان ، فى العشر الأواخر منه وفى أوتارها ؛ لقوله عليه السلام : « التمسوها فى العشر

الأواخر من رمضان فاطلبوها فى كل وتر » وإنما جعلت فى العشر الأواخر ، لأنه مظنة ضعف الصائم وفتوره فى العبادة ، حتى يستعيد همته فى العبادة ، رجاء إدراكها ، وجعلت فى الوتر لأن الله وتر يحب الوتر .

وأكثر الأقوال إنها فى ليلة السابع والعشرين من رمضان ، لما جاء فى حديث ابن عباس رضى الله عنه : « إن سورة ليلة القدر ثلاثون كلمة ، وقوله (هى) من (سلام هى حتى مطلع الفجر) السابعة والعشرون من السورة . ومن ذلك أيضاً قوله : « ليلة القدر تسعة أحرف ، وقد وردت فى السورة ثلاث مرات ، فتكون السابعة والعشرين » .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : سألت النبى ﷺ ، لو وافقتها ماذا أقول ؟ قال : قولى : اللهم إنك عفوّ تحب العفو فاعف عنّى » .

ولعل السر فى إخفائها : حث من يريد رؤية هذه الليلة ليحصل على الثواب العظيم أن يحيى الليالى الكثيرة بالقيام والدعاء رجاء موافقتها .

﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ خص الألف بالذكر للتكثير ؛ لأن العرب تذْكُر الألف عندما تريد المبالغة فى الكثرة ، ولا تريد حقيقتها .

وليلة القدر عند أكثر الفقهاء مختصة بشهر رمضان ، دون غيره

من بقية أشهر السنة ، وكان عليه السلام إذا دخل العشر الأواخر من رمضان شدّ مئزره ، وأحيى ليله ، وأيقظ أهله .

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ يبين الله سبحانه سبب تفضيل هذه الليلة على عبادة ألف شهر وهو تنزيل الملائكة إلخ .

والظاهر أن الروح من جنس الملائكة لكنه أعظم منهم رتبة وشرفاً ، وتفسير الروح بجبريل ضعيف وإن كان هو مشهوراً بالروح الأمين ، والروح القدس ؛ لأن الملائكة كلهم روحانيون ، هذه الملائكة والروح تنزل فى تلك الليلة إلى الأرض فوجاً فوجاً ، فمن نازل ومن صاعد على كثرتهم يستغفرون للصائمين حتى طلوع الفجر ، بعد أن يستأذنوا فى النزول فيؤذن لهم . ويروْن طاعة المكلف مفصّلة ، فإذا وصلوا إلى معاصيه أرخى الستر ، فيقولون : سبحان من أظهر الجميل ، وستر القبيح .

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ قدم « سلام » لإفادة الحصر ، أى ما هى إلّا سلام ، لا يحدث فيها داء ولا آفة كالرياح والصواعق وغير ذلك مما يخافه الإنسان ؛ بل كل ما ينزل فى هذه الليلة إنما هو نفع وخير ، ولا يستطيع الشيطان أن يرتكب فيها سوءاً ، ولا الساحر أن يمارس سحراً ، ووصف الليلة بالسلامة مع أنها ليست نفس السلامة ؛ للمبالغة ؛ لاشتمالها على السلامة .

وفى الحديث : « يَنزل جبريل ليلة القدر فى كبكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله وقت طلوع الفجر ، ثم يصعدون إلى السماء .

وعلامة ليلة القدر ، أنها ليلة لا حارة ولا باردة ، وتطلع الشمس صبيحتها ، لا شعاع لها لكثرة الملائكة ؛ لأن الملائكة تصعد عند طلوع الشمس فيمنع صعودها انتشار أشعتها .

وفى الحديث : « من قرأ سورة القدر أعطى ثواب من صام رمضان ، وأحيى ليلة القدر » .



سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ أى لم يكن أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، «والمشركين» هم عبدة الأوثان عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق والإيمان بالرسول المبعوث فى آخر الزمان ، والعزم على إنجازه ، وهذا الوعد من أهل الكتاب مما لا ريب فيه ، حتى إنهم كانوا يستفتحون ويقولون : اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان . وأما من المشركين فقد كانوا يسألون أهل الكتاب عن رسول الله ؛ هل هو المذكور فى كتبهم ، فيذكرون لهم أوصافاً غير أوصافه التى يعرفونها من كتبهم .

فالكفار كانوا جنسين : أهل الكتاب كفرق اليهود والنصارى ، والمشركون وهم الذين كانوا لا ينسبون إلى كتاب ، فذكر الله الجنسين بقوله : الذين كفروا على سبيل الإجمال ، ثم فصل الإجمال وبيّنه ، فقال : من أهل الكتاب والمشركين .

و (منفكّين) من انفكاك الشىء عن الشىء ؛ بأن يزايله بعد التحامه ، كالعظم إذا انفك من مفصله ، أى لم يكونوا مفارقين للوعد المذكور ؛ بل كانوا مجمعين عليه ، عازمين على إنجازه إذا أتتهم الحجة الواضحة .

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ هذا الرسول المذكور في التوراة والإنجيل ورد منوناً لتفخيمه وتعظيمه ، ثم أضافه إلى الله تأكيداً لفخامته وعظمته ، يتلو صحفاً منزهة من الباطل ؛ إذ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومطهرة نقية لا يمسها إلا المطهرون ، ونسْبة التلاوة إلى الصحف ليست حقيقية ، أى لا يتلو الصحف وإنما يتلو ما وقع فيها ، فالقرآن مصدق للكتب السابقة ، مطابق لها فى الأحكام والشرائع ، فصارت تلاوته للقرآن ، تلاوة لصحف الأولين ، حيث لا اختلاف بينها .

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ أى فى تلك الصحف أمور مكتوبة مستقيمة ، تنطق بالحق والصواب ، وفى ذلك إشارة إلى أن القرآن فيه من معانى الكتب السابقة ، إذ هو ثمرة كتب الله المقدسة .

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾

هنا أفرد ذكر أهل الكتاب بعد أن جمع بينهم وبين المشركين ، ليدل على شفاعة حالهم ، وأنهم لما تفرقوا مع علمهم ، كان غيرهم بذلك أولى ، فخصهم الله بالذكر ؛ لأن جحود العالم أقبح وأشنع من إنكار الجاهل .

وهذا أسلوب فيه توبيخ وتقريع لأهل الكتاب ؛ لأنهم ظلوا متشبثين بدينهم لا يتركونه حتى بعد مجىء البينة وظهور الرسالة التى كانوا يعلقون إيمانهم بظهورها .

قال الله يصفهم بأنهم ما تفرقوا فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، الدالة على أن الرسول محمداً هو الموعود فى كتابهم ، ولا ريب فى ذلك .

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ أى والحال أنهم ما أمروا بما أمروا به من العبادة إلا لأجل أن يتذللوا لله ، ويعظموه غاية التذلل والتعظيم ، ولا يطلبون فى امتثال ما كلفوا به شيئاً آخر ، كثواب الجنة أو الخلاص من النار ؛ بل العبادة تكون خالصة فنحن عبيد وهو رب ، فمن عبد الله للثواب والعقاب ، فالمعبود فى الحقيقة ليس هو الله ، بل المعبود هو الثواب والعقاب ، والله واسطة ، فالمقصود الأصلى من العبادة هو المعبود ، وإياك أن تلاحظ فى عبادتك شيئاً غير الله .

ولابد فى العبادة من شيئين يلاحظهما العبد .

أحدهما : تعظيم المعبود غاية التعظيم ، ولذلك يقال : إن صلاة الصبى ليست بعبادة ؛ لأنه لم يدرك بعد عظمة الله الحقيقية ، فلا يكون فعله غاية التعظيم ، وكذلك حكم الجاهل الغافل عن إدراك كنه الله تعالى .

وثانيهما : أن يكون مأموراً بالعبادة ، ففعل اليهود والنصارى ليس بعبادة وإن تضمن غاية التعظيم ؛ لأنهم غير مأمورين بعبادة غير الله جل شأنه .

فإذا لم يكن فعل الصبى عبادة لفقد التعظيم، ولا فعل اليهود والنصارى عبادة لفقد الأمر ، فكيف تكون العبادات الناقصة عبادة كاملة ، ولا أمر فيها ولا تعظيم . فيجب على المؤمنين فى عبادتهم أن يجعلوا أنفسهم خالصة لله تعالى ، دون طلب لجلب منفعة أو دفع مضرّة ، فإن السعى وراء جلب المنفعة أو دفع المضرة ليس من قبيل الإخلاص ، وإنما الإخلاص الحقيقى فى العبادة ألّا يطلع على عملك أحد إلا الله ، ولا تطلب من الله أجراً ولا عوضاً .

وفى (حنفاء) تأكيد لمعنى الإخلاص ؛ إذ هو الميل عن الاعتقاد الفاسد واللجوء إلى الاستقامة ، يقول ابن جبير : لا يسمى أحد حنيفاً حتى يحجّ ويُختن ؛ لأن الله وصف إبراهيم عليه السلام بكونه حنيفاً ، وكان من شأنه أن حج وختن نفسه . (ويقيموا الصلاة) وهى الأساس فى العبادات البدنية ، (ويؤتوا الزكاة) وهى الأساس فى العبادات المالية ، هذه العبادات كلها من الإخلاص وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة دين الإسلام الخالص ، فالشريعة المبلغة إلى الأمة بتبليغ الرسول إياها من قبل الله تسمى ملّة ؛ باعتبار أنها تكتب وتُملى ، وديناً باعتبار أنها تطاع ، فإن الدين الطاعة ، يقال : دان له ، أى أطاعه ، وأنث القيّمة ، تبعاً للفواصل القرآنية ، لأن الآيات اللاحقة هائية .

والقيمة : المستقيمة التى لا عوج فيها .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾ عاد هنا إلى ذكر المشركين مرة أخرى ؛ لئلا يتوهم اختصاص الحكم بأهل الكتاب . ومعنى كونهم فى نار جهنم ، أنهم يصيرون إليها يوم القيامة . فاشتراك الفريقين : أهل الكتاب والمشركين فى دخول النار بطريق الخلود لأجل كفرهم ، لا ينافى تفاوت عذابهم فى الكيفية ، فجهنم دركات ، والعذاب ألوان : فالمشركون ينكرون الله والرسول والبعث ، وأهل الكتاب ينكرون النبوة فقط ، فكان كفرهم أخف من كفر المشركين ، وإن اشتركوا جميعاً فى الكفر فاستحقوا العقاب ؛ بل أعظم العقاب ، وهو الخلود فيها ، ولما كان الكافرون كفروا طلباً للفرقة ، صاروا إلى أسفل السافلين ، فإن فى جهنم موضعاً عميقاً مظلماً ، واشتراك الفريقين فى العذاب لا يوجب اشتراكهم فى نوع العذاب (أولئك) عبر هنا بما يفيد البعد ولم يقل : هؤلاء ؛ ليفيد بعدهم عن رحمة الله ، فهم شر خلق الله ؛ لأن الله أوجدهم بعد العدم فلم يحفلوا بذلك فخلّدهم فى النار ؛ تأكيداً لفظاعة حالهم ، وهم دون غيرهم من الخلق ، شر البرية ، كيف لا ، وهم شر من السرّاق ؛ لأنهم سرقوا من كتاب الله نعوت محمد عليه السلام ، وشر من قطاع الطريق ؛ لأنهم قطعوا الدين الحق على الخلق ، وشر من الجهال الأجلاف ؛ لأن الكفر مع العلم يكون كفر عناد ، فيكون أقبح من كفر الجهال .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾

إن المؤمنين المنعوتين بالشرف ، والفضيلة ، والإيمان ، والعمل

الصالح هم خير الخلق جميعاً ، فالبرية تشمل الإنس والجن والملائكة ، وسئل الحسن رحمه الله عن قوله تعالى : ﴿ أولئك هم خير البرية ﴾ أهُمْ خير من الملائكة ؟ قال : ويلك ، وأنّى تعادِل الملائكةُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

جزاؤهم بسبب إيمانهم وطاعتهم عند ربهم دخول الجنات والإقامةُ فيها ، والجنات هى الأشجار الملتفة الأغصان ، وجمع جنات يدل على أن للمكلف جنات لا جنة واحدة ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان ﴾ ثم قال ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ فذكر للواحد أربع جنات ، ويذكرون السبب فى ذلك فيقولون : إن المؤمن يبكى من خوف الله ، وذلك البكاء من أربعة أجفان ينزل منها ، اثنين دون اثنين ، فاستحق به جنتين دون جنتين ، فحصل له أربع جنان ؛ لبكائه بأربعة أجفان .

و « أل » فى الأنهار للتعريف ، فتكون منصرفة إلى الأنهار المذكورة فى القرآن ، وهى نهر الماء ، ونهر اللبن ، ونهر العسل ، ونهر الخمر ، ووصف الأنهار بالجرى لمواظبتهم على الطاعات وجَريانها ماداموا أحياء ، فهم خالدون فى الجنات ، متنعمون بألوان النعم

الجسمانية والروحانية ، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها ، ولذلك أكد خلودهم بقوله (أبداً) . ورضوان الله عليهم يتمثل فى النعيم الذى جازاهم به فى حق الجسد والروح معاً ، فنعيم الجسد هو النعيم الموصوف ، وجنة الروح هى رضوان الله سبحانه ، فإذا رضى الله عنهم ، وأبيح لهم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وبلغوا من المطالب غايتها ، رضوا عن الله ، وشكروه على هذا العطاء الوفير الذى أسداه الله للمؤمنين .

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه ﴾ ذلك الرضوان لمن خشى الله ، وهى الخشية التى هى من خصائص العلماء بشئون الله تعالى ، لقوله ﴿ إنما يخشى اللَّهَ من عباده العلماءُ ﴾ .

عن أنس رضى الله عنه قال عليه السلام لأبىّ بن كعب رضى الله عنه : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : لم يكن الذين كفروا ... إلخ ، قال : أوَ سمّانى لك ، قال : نعم قال : وقد ذكرت عند رب العالمين ؟ قال : نعم ، فذرفت عيناه وسالت دموعه .

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ أى حركت تحريكاً عنيفاً متكرراً ، وفى تكرار حرف الزاى واللام من الشدة ما ينبىء عن معنى التزلزل . وهى زلزلة شديدة مخصوصة ، استوجبتها حكمة الله ومشيئته .

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ كرر لفظ الأرض ظاهراً وكان حقه الإضمار ؛ ليؤكد على أن الأرض بانبساطها واتساعها لا تبقى على حالها ، وإنما يعتورها التغيير . والأثقال : كنوز الأرض وما يدفن فى بطنها من موتى .

فالأرض تخرج ما فى جوفها من ركائز وكنوز عند النفخة الأولى ، كما تلفظ أمواتها عند النفخة الثانية ، وفى الخبر : «تقىء الأرض أفلاذ كبدها ، فيجىء القاتل فيقول : فى هذا قتلت ، ويجىء القاطع رحمَه فيقول : فى هذا قطعت رحمى ، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قطعت يدى ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً» والمراد بقوله : تقىء الأرض أفلاذ كبدها ، تخرج الكنوز المدفونة فى باطنها .

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ أى كل فرد من الأفراد يقول لما يغشاه من الأهوال ، ويَلْحَقُ به من الدهشة ، وما يعتريه من عظم الحيرة ، أى شىء طرأ على الأرض حتى تزلزل هذه المرة تلك الزلزلة

الشديدة وتخرج ما فيها من الأثقال ؟ ؛ استعظاماً لما يشاهده من الأمر الهائل، وتعجباً لما يراه من العجائب التى لم تسمع بها الآذان ، ولا ينطق بها اللسان ، أما المؤمن فيقول بعد الإفاقة . ﴿هذا ما وعَد الرحمنُ وصدَق المرسَلون﴾ بخلاف الكافر الذى يقول : ﴿مَنْ بعثَنا مِن مَرْقَدِنا﴾ .

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ الأرض تتكلم ، والجماد ينطق فى هذا اليوم ؛ لإظهار الهول والفزع الأكبر ، فالأرض تحدث الخلق بأخبارها ، إما بلسان الحال ، حيث تدلّ دلالة ظاهرة بزلزلتها وإخراج أثقالها ، وأن هذا ما كانت تنذر به الأنبياء وتخوف منه ، وإما بلسان المقال حيث ينطقها الله فتخبر بما وقع على ظهرها من خير وشر ، وأن الكافر بسبب شروره يساق إلى النار مجلّلا بالخزى والعار .

يقول الزمخشرى : فإن قلت : ما معنى تحديث الأرض والإيحاء لها ؟

قلت : هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث بالنسيان ، حتى ينظر من يقول مالها صارت إلى تلك الأحوال ، فوقع منها الزلزال ولفظت الأموات .

وقيل : ينطقها الله على الحقيقة ، وتخبر بما وقع عليها من خير وشر .

روى أن أبا أمية صلّى المكتوبة فى المسجد الحرام، ثم تقدم

فجعل يصلى هاهنا وهاهنا ، فلما فرغ قيل له ، ياأباأمية : ماهذا الذى تصنع ؟ قال : قرأت هذه الآية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ فأردت أن تشهد لى يوم القيامة ، فطوبى لمن شهد له المكان بالذكر والتلاوة والصلاة ونحوها ، وويل لمن شهد عليه بالزنى والشرب والسرقة والمساوىء . ويقال : إن لله عليك سبعة شهود : وعدّ منها المكان ، كما قال تعالى : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ .

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ أى تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها وأمره إياها .

يقول بعض المفسرين: فى السورة إشارة إلى زلزلة أرض البدن عند نزع الروح الإنسانى ، باضطراب ما أُودع فى البدن من قوة ، وإخراج متاعها من القوة والروح وهيئة الأعمال ، والاعتقادات الراسخة فى القلب ، وقال الإنسان مالها زُلزلت ، واضطربت ؟ ما طبّها وما داؤها ؟ ألانحراف المزاج ؟ أم لغلبة الأخلاط ؟ يومئذ تحدث أخبارها بلسان حالها ، بأن ربك أشار إليها وأمرها بالاضطراب ، والخراب ، وإخراج الأثقال ، عند زهوق الروح وتحقق الموت .

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا الصدر يكون عن ورود ، أى رجوع وانصراف بعد الورود والمجىء ، والمراد أن ينصرف الناس من قبورهم ، إلى موقف الحساب أشتاتاً ، متفرقين بغير نظام ، هؤلاء ببض الوجوه والثياب ، آمنين ، ينادى المنادى بين يديه : هذا ولىّ الله ،

وأولئك سود الوجوه حفاة عراة ، موثقين فى السلاسل والأغلال ، فزعين مضطربين ، ينادى المنادى بين يديه : هذا عدوّ الله .

﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾ أى جزاء أعمالهم خيراً كان أو شرا ، فالرؤية هنا بصرية -وليست علمية- تتعدى إلى مفعول واحد ، وهى لا تتعلق بالأعمال .

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

المثقال : الوزن ، والذّرة : شيء صغير جداً لا يرى بالعين المجردة ، أو ما ينبعث من شعاع الشمس من الهباء ، يقول ابن عباس رضى الله عنهما : « إذا وضعت راحتك على الأرض ، ثم رفعتها ، فكل واحد مما لزق بها من التراب ذرة » .

والمعنى : رؤية ما يعادل الذرة من خير وشر ، فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شراً يره ، وذلك لأن حسناتِ الكافر محبطة بالكفر ، و سيئاتِ المؤمن المجتنب للكبائر معفو عنها .

يقول بعض العلماء : إن حسنة الكافر تؤثر فى نقص العقاب ، فقد ورد أن حاتما الطائى يخفف الله عنه لكرمه ، وورد مثله فى أبى طالب عم الرسول ﷺ وغيره . ولكن يردّ ذلك قوله تعالى : ﴿وقَدِمْنا إلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ وقوله عليه السلام فى حق عبد الله بن جُدعان : لا ينفعه ؛ لأنه لم يقل يوماً :

(ربِّ اغفرْ لى خَطِيئتى يومَ الدِّين) وذلك حين قالت عائشة رضى الله عنها : يارسول الله ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ » .

وأما حسنات الكفار فمقبولة بعد إسلامهم وليس قبل ذلك .

ويروى عن ابن عباس رضى الله عنه : ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً ، إلا أراه الله إياه ، أما المؤمن فيغفر له سيئاته ويثيبه على حسناته . وأما الكافر فيرد حسناته تحسيراً له . وفى تفسير البقاعى : الكافر يُوقَف على عمله من خير على أنه جوزى به فى الدنيا ، أو أنه أحبط ؛ لبنائه على غير أساس من الإيمان ، فهو صورة بلا معنى ؛ ليشتد ندمه ويقوى حزنه وأسفه ، والمؤمن يرى عمله ؛ ليشتد سروره به ، وفى جانب الشر يراه المؤمن ويعلم أنه قد غفر له ، فيكمُل فرحُه ، وتتم سعادته .

نزلت هذه الآية ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ﴾ إلخ ترغيباً فى الخير ، ولو كان قليلاً كتمرة ، أو كسرة ، أو جوزة ونحوها ، فإن ذلك عند الله كثير إذا خرج بنيّة خالصة ، وتحذيراً من الشر وإن كان قليلاً كخيانة فى الميزان ، وكنظرة آثمة ، أو خطوة فى معصية ، أو كذبة تشعل ناراً ، فإن ذلك يوشك أن يكون كثيراً وعظيماً عند الله ، لما فيها من الجراءة على الله وانتقاص من الناس .

كان الناس فى بدء الإنسان يرون الله لا يؤاخذ بالصغائر من الذنوب ، وكان بعضهم يستحيى من صدقة الشيء اليسير ، ويظن أنه ليس له أجر ، حتى نزلت الآية . جعلنا الله ممن يفعلون الخير ويجتنبون الشر .

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ جمع عادية ، وهى الخيل الجارية بسرعة العدو ، وأقسم سبحانه بخيل الغزاة التى تعدو تجاه العدو .

ضَبْحًا ﴿١﴾ وهو صوت أنفاس الخيل عند عدْوها يصدر من أجوافها ، وهو صوت غير الصهيل والحمحمة التى تصدر من البغل عند تناول الشعير .

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ الإيراء : إخراج النار ، والقدح : الضرب ، فإن الخيل يضربن بحوافرهن وسنابكهن الحجارة ، فيُخرجن منها ناراً .

يقال : قدح الزند فأورى ، وقدح الزند فأصلد ، أى صوّت فلم يورِ . أراد أن النار تورى وتنبعث من حوافرها إذا سارت فى الأرض ذات الحجارة ، فالقدح استعارة لضرب الحجارة بحوافرها .

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ تقول : أغار على القوم : إذا رفع الخيل عليهم ، وأغار الفرس : اشتد عدوه فى المغارة ، وأسند هنا الإغارة –وهى مباغتة العدو للقتل والنهب– إلى الخيل ، وحقها أن تسند إلى أرباب الخيل ؛ إيذاناً بأن الخيل هى العمدة فى إغارتهم .

وقال : (صُبْحاً) ؛ لأن وقت الصبح هو المعتاد فى الغارات ،

يعدون خططهم ليلاً لئلا يشعر بهم العدو ، ويهجمون عليهم صباحاً ، على حين غرة ؛ ليروا ما يأتون وما يذرون .

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾ عطف الفعل « أثرن » على الأسماء ؛ لأنها بمعنى الفعل ، فالمعنى : واللاتى عدون ، فأورين ، فأغرن ، فأثرن به ، أى : فهيجن فى ذلك الوقت الغبار ، و « نَقْعًا » من نقع الصوت إذا ارتفع ، فالغبار سمى نقعاً لارتفاعه .

وخص الإثارة بالصبح ؛ لأن الغبار لا يثور ولا يظهر ثورانه بالليل ، كما أن الإيراء الذى لا يظهر بالنهار واقع بالليل ، فالقرآن قد بلغ الغاية فى دقة التعبير . ومنشأ الغبار وإثارة النقع ؛ أنهم يكونون حال الإغارة مختلفين يميناً وشمالاً ، وأماماً وخلفاً ، بحسب الكر والفر فى المجاولة إثر الهارب المدبر ، والمصاولة مع المحارب المقبل .

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ أى توسطن فى وقت الصباح جموع الأعداء ودخلن فى وسطهن ، والفاء تفيد الترتيب والتعقيب ، فإن توسط الجمع مترتب على الإثارة ، المترتبة على الإغارة ، المترتبة على الإيراء ، المترتب على العدْو .

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ هذا جواب قسم للعاديات وما بعدها ، أى لكفور بنعم الله ، قال الكلبى : الكنود بلسان كندة : العاصى ، وبلسان بنى مالك : البخيل ، وبلسان مضر وربيعة : الكفور شديد الكفران والجحود . ولبيس المراد بالإنسان جميع أفراده ، بل

بعضه ، وقدم «لربّه» على «كنود» لإفادة التخصيص من جهة ، ولمراعاة الفواصل فى الآيات اللاحقة من جهة أخرى .

روى أن رسول الله ﷺ بعث سريّة إلى بنى كنانة أمَّر عليها المنذر بن عمرو الأنصارى ، فلم تصل أخبارُها إلى الرسول ﷺ ، فقال المنافقون : إنهم قتلوا ، فنزلت السورة ؛ إخباراً للنبى عليه السلام بسلامتها ، وإشارة له بإغارتها على القوم ، ونعياً على المرجفين فى حقهم بسبب ما هم فيه من الكنود .

وفى تخصيص القسم بخَيْل الغزاة من البلاغة ما لا مزيد عليه ؛ لأنه إذا كان شرف خيل الغزاة بهذه المرتبة حتى أقسم الله بها ، فما ظنك بشرف الغزاة وفضلِهم عند الله .

وعنه عليه السلام : الكنود : هو الذى يضرب عبده ، ويأكل وحده ، ويمنع رِفده .. أى عطاءه ، فيكون بخيلاً .

ويقال : كان ثلاثة نفر من العرب فى عصر واحد :

أحدهم : آية فى السخاء ، وهو حاتم الطائى .

والثانى : آية فى البخل ، وهو أبو حُباب ، كان لا يوقد النار للخبز إلا إذا نام الناس ، فإذا انتبهوا أطفأ ناره ؛ لئلا ينتفع بها أحد .

والثالث : آية فى الطمع ، وهو أشعب بن جبير ، مولى مِصعب ابن الزبير بن العوام : قرأ صبى فى المكتب وعنده أشعب جالس : ﴿إنَّ أبى يَدْعُوك﴾ القصص ٢٥ فقام ولبس نعله ، فقال الصبى :

أنا أقرأ حزبى . وكان إذا رأى إنساناً يحك عنقه ، يظن أنه ينتزع قميصه ليدفعه إليه ، وكان إذا رأى دخاناً ارتفع من دار ظن أهلَها يأتون إليه بطعام ، وهكذا ، قال أشعب : ما رأيت أطمع منى إلا كلباً تبعنى على مضغ العلك فرسخا .

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ إن الإنسان على كنوده وجحوده لشاهد على نفسه بلسان الحال لا بلسان المقال ، أى أنه كفور مع علمه بكفرانه ، والعمل السيء مع العلم به غاية المذمة .

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ أى حب المال ، وإيثارُ الدنيا والسعىُ وراءها ، فهو مجدّ فى طلبها متهالك عليها ، وفى الوقت نفسه ضعيف متقاعس فى حبه لله وعبادتِهِ وشكره .

أو شديد بمعنى بخيل ممسك ، فهو لأجل حبه للمال وثقل إنفاقه عليه ، شديد البخل ، عظيم الإمساك .

ووصْف الإنسان بهذا الوصف القبيح بعد وصفه بالكنود ، إشارةٌ إلى أن من جملة الأمور الداعية للمنافقين إلى النفاق ، حبَّ المال ؛ لأنهم بما يظهرون من الإيمان يعصمون أموالهم ويحصُلون على الغنائم .

۞ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾ أفلا يعلم أن الله مجازيه على فعله القبيح ، إذا بعث وأخرج من القبور مع الموتى ، يوم لا ينفع المال ، ولا البخل ولا النفاق .

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ أخرج المستور ، وظهر الخفى ، وانجلى المغمور ، كما يخرج الدهن من اللبن ، والذهب من الحجر ، والبُر من التبن ، ويظهر ماأخفاه المنافقون من الكفر والمعاصى ، فضلاً عن أعمالهم الخبيثة الظاهرة المعلنة . والتعبير هنا بالصدور ؛ لأن القلوب وهى وسط الصدر تنبعث منها النيات ، فهى أصل ، وأعمال الجوارح تبع ، ولذا يقول تعالى : ﴿فإنه آثمٌ قَلْبُه﴾ وقال عليه السلام : « الناس يبعثون على نياتهم » .

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ عبر هنا بضمير العقلاء « ربهم بهم » بعد ما عبر عنهم « بما » فى قوله تعالى ﴿ما فى القبور﴾ للتفاوت فى الحالتين ، فحين كانوا فى القبور كانوا بلا عقل ولا علم كالجمادات ، بخلاف وقت الحشر . فالله خبير بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم ، بكل تفاصيلها عند بعثهم من القبور ، وهو عليم أيضاً بما فى صدورهم من وساوس وأوهام ، ونوايا خبيثة أو طيبة ، فالله يعلم الظاهر والباطن ، ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فى الحياة أو فى الموت ، فى البعث أو الحساب .



سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾

القرع هو الضرب بشدة بحيث يحصل منه صوت شديد ، وسميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة ، والمراد بالقارعة هنا : يوم القيامة ؛ لأنها تقرع القلوب والأسماع بالفزع والأهوال ، وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال ، فتنشق السماء ، وتنتثر الكواكب ، وتتفجر البحار ، وَتُدَكّ الأرض ، وتُنسف الجبال .

فالاستفهام هنا للتفخيم من شأنها والتهويل من حالها ، فأمرها عجيب ، ووصفها غريب ، وعندما كرر لفظ القارعة وضع الظاهر موضع المضمر فلم يقل : القارعة ما هى ؟ وإنما قال : القارعة ما القارعة تأكيداً لهذا التهويل وتثبيتاً لهذا التضخيم .

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ أىّ شيء أعلمك ما كنهها ؟ فإن شأنها عظيم بحيث لا تدركها النفوس ، أو تستوعبها العقول .

يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ الفراش جمع فراشة ، وهى التى تتهافت على السراج فتحترق ، فالناس يوم القيامة كالفراش المفرق فى الكثرة والانتشار ، والضعف والذلة ،

والاضطراب والتطاير نحو الداعى كتطاير الفراش إلى النار . فالله سبحانه شبه الخلق وقت البعث بالفراش المبثوث الذى يتحرك فى جهات مختلفة ؛ لأنهم إذا بعثوا فزعوا ، فيذهب كلٌّ إلى جهة غير جهة الآخر ، كالفراش فإنه لا يطير إلى جهة واحدة ، بل إلى جهات متعددة متفرقة . ومن جهة أخرى فقد شبههم بالفراش ؛ لأنه حقير ذليل لاوقع له فى عين أحد ، كما أن الخلق كذلك يوم البعث فى حين الواحد القهار .

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ أى كالصوف الملون بالألوان المختلفة ، المندوف المفرق الأجزاء ، المتطاير فى الجو ، وكل ذلك من آثار القارعة ، فيبدل الله الأرض غير الأرض ، وتنتقل الجبال عن مكانها ، وتسوَّى بالأرض ، حتى يشاهدها أهل المحشر .

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾ بالأعمال التى لها وزن وخطر عند الله ، وثقل الموازين : رجحانها ؛ وذلك لأن الحق ثقيل ، والباطلَ خفيف ، أى يؤتى بالأعمال الصالحة على صورة حسنة ، وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة ، فتوضع فى الميزان فمن ترجّحت مقادير حسناته .

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ أسند راضية إلى ضمير العيشة ، والعيش سبب الرضى ، فهو من الإسناد إلى السبب . أو أن العيشة لا ترضى ، وإنما يرضى صاحبها عنها .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾ بأن لم يكن له حسنة يعتدّ بها ، أو رجحت سيئاته على حسناته ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه : « يحاسَب الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة ، دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة ، دخل النار » .

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ أى مأواه النار ، وسميت النار بالهاوية ؛ لشدة عمقها ، وبعد مهواها . وعبر عن المأوى بالأمّ ؛ لأن أهلها يأوون إليها ، كما يأوى الولد إلى أمه ، وهذا غاية التهكم بأهل النار ، أو لأن النار تحيط بهم إحاطة رحم الأم بالولد . وفى الكشاف من قولهم : إذا دعوا على الرجل بالهلاك ، هوت أُمُّه ؛ لأنه إذا هوى وسقط ، فقد هوت أمه حزناً عليه ، فكأنه قيل قد هلك .

يقول بعض المفسرين ، وأما من خفت موازينه بالأخلاق السيئة ، والأوصاف القبيحة الخبيثة ، فمصيره النار ، وهى نار حامية بنار الجهل والعمى ، ونفخ الشيطان والهوى .

وفى لفظ الثقل والخفة إشارة إلى أن السعداء والأشقياء مشتركون فى ارتكاب السيئة ، وإن كانت عند السعداء قليلة مرجوحة ، وعند الأشقياء كثيرة راجحة ، فهى قاسم مشترك بين الفريقين ، ولذلك يقول عليه السلام لعلىّ رضى الله عنه : « يا علىّ إذا عمِلتَ سيئة فاعمل بجانبها حسنة » .

واعلم أن ميزان الحق يغاير ميزان الخلْق، فصعود الأعمال وارتفاعُها هو الثقل، وهبوطها وانحطاطُها هو الخفة، فميزان الله سبحانه هو العدل، والموزونات الثقيلة عند الله هى التى لها قدر وشأن، وهى الباقيات الصالحات، والموزونات الخفيفة التى لا اعتبار لها عند الله، هى الفانيات الفاسدات من الشهوات واللذات.

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ فى الآية إشعار بخروجها عن الحدود المألوفة فلا يعلمها أحد ولا يتصورها فرد، فهى:

نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾ متناهية فى الحرّ، أعاذنا الله من هجيرها.

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ اللهو : هو ما يشغل الإنسان عما يهمه ويعنيه ، يقال لهوت عن كذا ، أى : اشتغلت عنه ، ويعبر عن كل ما به يستمتع .

والتكاثر : التبارى فى الكثرة والتباهى بها ، وأن يقول هؤلاء ؛ نحن أكثر ، ويقول أولئك : بل نحن أكثر ، فيشغلهم التغالب فى الكثرة ، والتفاخر بها .

وعن أى شيء يلهيهم التكاثر ؟ يلهيهم عما يعنيهم من أمور دينهم ، فحذفه للتعظيم ؛ لأن الحذف فيه من الإبهام مما يعد ذريعة للتعظيم ، أو حَذفه للمبالغة ؛ حتى تذهب فيه النفس كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام مثل ذكر الله والواجبات والمندوبات مما يتعلق بالقلب ، كالعلم واالتفكر والاعتبار ، أو يتعلق بالجوارح كأنواع الطاعات .

وتعريف التكاثر بأل ؛ لتفيد العهد المذموم وهو التكاثر فى الأمور الدنيوية الفانية ، كالتفاخر بالمال ، والجاه ، والسلطان ، والأعوان ، والأقارب ، أمّا التفاخر فى الأمور المعنوية الباقية فممدوح كالتفاخر بالعلم ، والعمل ، والأخلاق ، والصحة ، والقوة ، والغنى ، والجمال ، إذا كان من باب (وأما بنعمة ربك فحدّث) ومن ذلك

تفاخر العباس رضى الله عنه بأن السقاية بيده، وتفاخر شيبة بأن مفتاح الكعبة بيده، وتفاخر على رضى الله عنه بأنه قطع خرطوم الكفر بسيفه .

روى أن بنى عبد مناف وبنى سهم تفاخروا بالعدد، وتكاثروا بالسعادة، ومكانة الشرف فى الإسلام، فقال كل من الفريقين : نحن أكثر منكم سيداً، وأعظم نفرا، فغلبت بنو عبد مناف بالكثرة، فإذا استوعبوا عدد الأحياء، صاروا إلى التفاخر والتكاثر بالأموات .

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ فعبر عن انتقالهم إلى ذكر الموتى بزيادة القبور، أى جعلت كناية عنه تهكماً بهم . يقول الطيبى : إنما كان تهكماً ؛ لأن زيارة القبور شرعت لتذكّر الموت، ورفض حب الدنيا، وترك المباهاة والتفاخر، وهؤلاء عكسوا الغاية ؛ حيث جعلوا زيارة القبور سبباً لمزيد من القوة والاستغراق فى حب الدنيا، والتفاخر بالكثرة .

وقرأ ابن عباس : أألهاكم ؟ على الاستفهام، ومعناه التقرير على أنفسهم بأن التكاثر قد ألهاهم عن أمور دينهم لانشغالهم بأحوال دنياهم .

وقيل المعنى : ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن توفاكم الموت، وأخرجتم إلى قبوركم، مضيعين أعماركم فى طلب الدنيا، مُعْرضين عن السعى لأخراكم، فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت،

والتكاثر هو التكاثر بالمال والولد . روى أنه عليه السلام سمع يقرأ هذه الآية ، ويقول بعدها : « يقول ابن آدم : مالى مالى !! وهل لك من مالك إلا ماأكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » .

وفى التعبير بكلمة الزيارة إشارة إلى أنهم يبعثون ؛ فإن الزائر منصرف لا مقيم ، ولابد لمن زار أن يرجع إلى بيته : إما إلى جنة أو إلى نار .

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ردع عما هم فيه من التكاثر والتفاخر ، ففضل الإنسان وسعادته ليست منوطة بكثرة أعوانه وأمواله ، ومن يظن ذلك فقد وقع فى خطأ عظيم ، وعلى العاقل ألا يكون همّه مقصوراً على الدنيا ؛ فإن عاقبة ذلك وبال وحسرة . فإذا علمتم ما سوف يحدث لكم من هول فى المحشر لجزعتم وتنبهتم من غفلتكم . قال الحسن رحمه الله : « لا يغرّنّك كثرةُ من ترى حولك ، فإنك تموت وحدك ، وتبعث وحدك ، وتحاسب وحدك » .

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ تأكيد للردع والإنذار السابق ، ولذلك فهو أبلغ من الأول الذى خلا من هذا التوكيد ، واستعمل « ثم » هنا تنزيلاً لبعد المرتبة منزلة بعد الزمان .

ومعنى هذه الآية يختلف عن معنى الآية الأولى السابقة :

فالأولى : عند الموت فى وقت ما بشر به المحتضر من جنة أو نار ،

وفى القبر حين سؤال منكر ونكير : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيّك ؟

أما الثانية : فهى عند النشور حين ينادى المنادى : شقى فلان شقاوة لا سعادة بعدها . فعلى هذا لاتكرار فى الآية لحدوث التغاير بينهما .

وعن على رضى الله عنه : مازلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت السورة .

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾ أى لو علمتم ما تستيقنونه لفعلتم الخير فى الدنيا ، ولكنكم فى ضلال وجهل ، فجواب لو محذوف .

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾ جواب قسم مضمر أكد به الوعيد ، ولا يجوز أن يكون جواب لو ، فلو جعل جواب لو ، لكان المعنى أنكم لاترون الجحيم لأنكم فى ضلال وجهل ، وهو فاسد .

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ ترونها فى هذه الآية تختلف فى معناها عن «لترون الجحيم» فى الآية السابقة ، فمعنى الأولى : إذا رأوها من مكان بعيد ببعض خواصها وأحوالها ، مثل رؤية لهبها ودخانها . ومعنى الثانية ، معاينة نفس الحفرة ، وما فيها من الحيوانات المؤذية وكيفية السقوط فيها ، وذلك أكشف وأوضح من الرؤية الأولى ، وإيضاح الشىء بعد إبهامه فيه تفخيم وتعظيم .

وإنما قيد الرؤية بعين اليقين ؛ احترازاً عن رؤية يقع منها الحس فى الغلط .

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أى لتسألن يوم رؤية الجحيم وورودها ، عن النعيم الذى ألهاكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه ، فتعذبون عن هذا الإهمال ، كما تسألون عن استيفاء اللذات التى قصرتم همّكم عليها من الأكل الطيب ، واللبس اللين ، وقطع الأوقات فى اللهو والطرب ، غير عابئين بترويض النفس على الطاعة والتقوى ، فالسؤال فى الآية ، يدخل فيه كفارُ مكة ، ومن لحق بهم فى وصفهم من فسقة المؤمنين .

قال ابن كعب : النعيم هو : محمد ﷺ إذ هو نعمة ورحمة ، اعتماداً على قول الله تعالى : ﴿يَعرفون نِعْمة الله ثم يُنكرونها﴾ وقوله تعالى : ﴿وما أرسلْناك إلا رحمةً لِلْعَالَمين﴾ .

وفى الحديث : «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية فى كل يوم ؟ قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية كل يوم ؟ قال : أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر مرّة» . وَمِن الله التوفيق والإرشاد .



سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾

أقسم سبحانه بصلاة العصر ، فإنه كثيراً ما يطلق العصر ، ويراد صلاته ، وذلك لفضلها الباهر ؛ لكونها تتوسط بين الشفع الذى هو صلاة الظهر ، وبين الوتر الذى هو صلاة المغرب ، فلما توسطت بين الطرفين اتصفت بالوصفين ، ونالت الفضيلتين ، فحصل لها من القدر مالم يكن لكل واحد من الطرفين .

وفى الحديث : « من فاتته صلاة العصر فكأنه وتر أهلَه وماله » أى فقد أهله ونقص ماله ، فليكن من فوتها فى حذر كما يحذر من ذهاب أهله ونقصان ماله .

وسر هذا التوعّد أن التكليف فى أداء صلاة العصر أشق وأكثر عنفا ؛ لتهافت الناس على تجارتهم ومكاسبهم واشتغالهم بمعايشهم آخر النهار ، لطيب الهواء حينئذ لا سيما فى أرض الحجاز ، فالكسب الحاصل فى ذلك الوقت مع السهو عن الصلاة فى حكم الخسران .

يحكى أن امرأة كانت تصيح فى طرق المدينة وتقول : دلونى على النبى ﷺ ، فرآها الرسول ، فسألها ماذا حدث ؟ قالت يارسول الله : إن زوجى غاب عنى فزنيت ، فجاءنى ولد من الزنى ، فألقيت الولد فى دِنّ من الخلّ حتى مات ، ثم بعنا ذلك الخل ، فهل لى من

توبة ؟ فقال عليه السلام : أما الزنى ، فعليك الرجم بسببه ، وأما القتل فجزاؤه جهنم ، وأما بيع الخل فقد ارتكبت به كبيرة ، لكن ظننتُ أنك تركت صلاة العصر » مما يدل على عظم صلاة العصر ومنزِلتها الكبيرة .

ويقال : إن الله أقسم بوقت العصر نفسه ، كما أقسم بالفجر فقال : ﴿والفجرِ وليالٍ عَشْرٍ﴾ والضحى فى قوله : ﴿والشمسِ وَضُحَاها﴾ ﴿والضُّحى والليل إذا سَجَى﴾ لما فيها جميعاً من دلائل قدرة الله ، والقسم بالشيء إعظام له ، وما يضاف إليه الخسران لا يعظّم عادة .

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ فتعريف الإنسان بأل ليفيد العموم والاستغراق ، بدليل صحة الاستثناء منه فى قوله ﴿إلّا الذينَ آمَنوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ والخسر والخسران معناه النقصان وذهاب رأس المال ، ورأس المال فى حق جنس الإنسان يتمثل فى حياته وعمره ونفسه ، وهل ثمة خسارةٌ أعظم من ضياع عمر الإنسان وحياته .

والتنكير فى (خسْر) للتفخيم ، أى لفى خسران عظيم لا يعلم كنهه إلا الله وهذا الخسران يتمثل فى صرف أعمارهم فى البغى والأعمال السيئة القبيحة . ويجوز أن يكون التنكير للتنويع ، أى نوع من الخسران غريب غير مألوف عند عامة الناس .

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أى آمنوا إيماناً صادقاً قوياً ، واكتسبوا الفضائل والخيرات الباقية ، فربحوا فى تجارة لن تبور حيث باعوا الآخرة بالدنيا ، وتركوا الفانىَ الخسيس ، واشتروا الباقىَ النفيس ، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات ، فما أعظم هذه التجارة وما أربحها !!

وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ أى وصى بعضهم بعضاً بالأمر الثابت الذى لا سبيل إلى إنكاره ، فآمنوا بالله ، واتبعوا كتبه ورسله فى كل أعمالهم.

وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ عن المعاصى التى تشتاق إليها النفس بحكم طبيعتها البشرية ، كما تصبر على الطاعات التى يشق عليها أداؤها ، وعلى ما يبلو الله به عباده .

ونلاحظ أن القرآن قد خص التواصى بالصبر فذكره، مع أنه يندرج تحت التواصى بالحق؛ لإبراز كمال العناية به، والاهتمام بشأنه، فالمراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتطلع إليه من فعل، أو ترك؛ بل هو تلقى ما يرد منه تعالى بالرضى والجميل ظاهراً وباطناً.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال :

« أقسم ربكم بآخر النهار (العصر) إن أبا جهل لفى خسر ، إلا الذين آمنوا ، أى : أبا بكر رضى الله عنه ، وعملوا الصالحات ، أى : عمر رضى الله عنه، وتواصوا بالحق، أى: عثمان رضى الله عنه ، وتواصوا بالصبر ، أى: علياً رضى الله عنه »، فسرها بذلك علىّ ابن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم على المنبر .



سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يقول الله تعالى فى محكم كتابه : وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ فكلمة «ويل» فارسية فيها معنى التألم والتوجع، وهى دعاء عليهم بالهلاك وسوء المصير، والهامز هو من يعيبك من وراء ظهرك، واللامز هو الذى يعيبك فى وجهك، والتعبير بالهمزة واللمزة يدل على الإكثار من هذه الصفات والتعود على ممارستها .

وقد نزلت هذه الآيات فى الأخنس بن شريق، أو فى الوليد ابن المغيرة، فإن كلاً منهما كان يغتاب رسول الله ﷺ، والأصح أنها عامة فى كل من يتناول الناس بالطعن والشتم .

والهمزة واللمزة رذيلتان تحتويان على الجهل والغضب والكِبْر، ويتضمنان الأذيّة وطلب الترفع على الناس، فصاحبها يريد أن يتفضل على الناس، وهو خاو عن الفضائل، ولا يجد فى نفسه فضيلة يترفع بها على غيره من الناس، فينسب العيب والرذيلة إليهم؛ ليظهر فضله عليهم .

ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ أى ويل وهلاك للذى جمع الأموال، وكأنّ الله سبحانه جعل جمعه للمال هو السبب فى كونه همّازاً لمّازاً، حيث أعجب بنفسه وجمعه للأموال، وظن أن كثرة المال سبب لعزّ المرء وفضله، ومن ثم استنقص غيره، وقال (مالاً)

بالتنكير ولم يقل « المال » بالتعريف ، وذلك للتفخيم والتكثير .
(وعدّده) أى عدّه مرة بعد أخرى من غير أن يؤدى حق الله منه ، أو جعله عُدّة وذخيرة لنوائب الدهر ؛ لأن الذى جعل المال عدّة للنوائب لا يعلم أن نفس ذلك المال ، هو الذى يجرّ إليه النوائب .

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ فيعمل على تشييد البنيان ، وغرس الأشجار ، وشق الترع والأنهار عمل من يظن أنه لن يموت أبداً ؛ بل ماله يبقيه حيّا ، وأنه قد وصل بأمواله إلى مقام الخلد .

وعبّر هنا بالماضى فقال (أخلده) ولم يقل « يُخلده » بالمضارع ؛ لأنه يحسب أن أمواله التى جمعها قد ضمنت له الخلود ، وأبعدت عنه الموت ، فكأن حكم محقق لا شك فيه ، ومن ثم حسن التعبير بالماضى .

كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ أى : والله ليَطْرحَنّ فى النار التى من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها ، كما أن من شأن الهماز اللماز أن يحطم ويتناول أعراض الناس ، فكان النبذ فى الحطمة جزاء وفاقا لأعمالهم .

وعبّر هنا بكلمة « النبذ » ؛ لأنه ينبىء عن الاحتقار والقلّة ، تشبيهاً لهم ببعض الحصى الذى نضعه فى أكُفّنا فنطرحه فى البحر أو عرض الطريق دلالة على الاستهانة به . .

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ أراد الله سبحانه أن يهول من أمرها ، فبيّن أنها ليست من الأمور العادية التى تستوعبها عقول الخلق ، وإنما هى شىء غريب نادر ، لم تقع العين على شبيه له .

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَة﴾ فما يوقد ويشتعل بأمر الله لا يقدر أن يطفئه غيره ، وأضاف النار إليه لتفخيمها ، والإشارة إلى أنها ليست كسائر النيران ، وعن علىّ رضى الله عنه : « عجباً ممن يَعص الله على وجه الأرض ، والنار تَسعَر من تحته » .

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ أى تعلوا أوساط القلوب وتغشاها ، فإن الفؤاد وسط القلب ، أى أن النار تحطم العظام وتأكل الأجساد ، فتدخل فى أجواف أهل الشهوات وتصل إلى صدورهم ، وتستولى على أفئدتهم ، إلا أنها لا تحرقها كلية ، إذ لو احترقت لمات أصحابها ، ثم إن الله تعالى يعيد لحومهن وعظامهن مرة أخرى . وخص الأفئدة بالذكر ؛ لأن الفؤاد ألطف ما فى الجسد ، وأشد تألماً بأدنى أذى يمسه ، أو أنه محل العقائد الزائغة والنيات الخبيثة ، والأعمال السيئة . فاطلاع النار على الأفئدة التى هى خزانة الجسد ، ومحل ودائعه يستلزم الاطلاع على جميع الجسد من باب أولى .

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾ أى أن تلك النار مطبقة أبوابها عليهم تأكيداً ليأسهم من الخروج ، وإيقانهم بأنهم محبوسون إلى الأبد . من أوصدت الباب إذا أطبقته .

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ عمد : جمع عمود ، أى حال كونهم موثقين فى أعمدة ممدودة ، مثل المقاطر التى تقطر فيها اللصوص ، والمقطرة : الخشبية التى يكون فيها خروق تدخل فيها أرجل المحبوس

كيلا يهرب ، فالأبواب توصد ، وتمدّ عليها العمد المطولة الراسخة . وفيه إشارة إلى ربطهم فى عمد أعمالهم ، ومدّهم فى أرض الذل والهوان والخسران ، فلا عزّ لهم ، ونسأل الله أن لا يذلنا مثل أهل النار . إنه الوهاب .

ثم انظر ارتباط أول السورة بآخرها :

قال فى أول السورة ﴿وَيْلٌ لكلّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ قال : «ويلٌ» بالرفع ولم يقل «ويلاً» بالنصب ، فبالرفع جملة إسمية تدل على الثبوت والاستمرار ، وبالنصب جملة فعلية ، وهى تدل على التجدد والانقطاع ، فأراد بالرفع أن لهم عذاباً دائماً مستمراً لا ينقطع ولا يفتر ، بخلاف النصب لأنه إخبار بعذاب منقطع غير دائم ، وذلك أهون وأخف من العذاب الدائم والمستمر .

ثم اربط أول هذه السورة بآخرها : ﴿إنها عليهم مؤصدة فى عَمد ممددة﴾ فأبواب جهنم موصدة مغلقة على الكافرين لا تنفتح ، وليس ثمة أمل فى انفراجها ، فتهب نسمة هواء تخفف من لظى هذا السعير ، فعذابهم دائم خالد لا ينقطع ولا يفتر ، فجاءت المناسبة بين نهاية السورة وأولها حين قال تعالى بالرفع «ويلٌ لكل همزة لمزة» .

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾

الخطاب لرسول الله ﷺ ، والهمزة لتقرير رؤيته ، والرؤية علمية لا بصرية ؛ لأن النبى عليه السلام ولد عام الفيل فلم ير شيئاً ، وإنما عرف حكايتهم فيما بعد . والمراد بأصحاب الفيل أبرهةُ الأشرم وقومُه ، وبالفيل هو الفيـل الأعظم واسمه محمود ، ونسبت القصة إلى الفيل ؛ لأنه كان فى مقدمتهم .

وبين الفيل ومولد الرسول خمس وخمسون ليلة ، وهى سنة ستة آلاف ومائة وثلاث وستين من هبوط آدم على حكم التواريخ اليونانية المعتمدة عند المؤخرين .

والمقصود بذكر القصة تسلية النبى عليه السلام بأن الله سيجزى من يظلمه ، كما جزى من قصد الكعبة بالتخريب .

وأبرهة فى الحبشية معناها ذو الوجه الأبيض ، والأشرم لأن عينه وحاجبه وأنفه وشفتيه قد شرمت ، أى شقت وقطعت وخدشت ، فلذلك سمى أبرهة الأشرم .

ولقد رأى أبرهة الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله الحرام ، فتحركت ضغينته وانتفض منه عرق الحسد ، فبنى

بصنعاء كنيسة من رخام ملون ، واجتهد فى زخرفتها ، فجعل فيها الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب ، وكان ينقل ذلك من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وجعل فيها صلباناً من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والأبنوس ، وسماها القليس ، لعلوها وارتفاع بنائها ، ومنها القلانيس ؛ لأنها من أعلى الرأس ، وأراد من بنائها أن يصرف إليها الحجاج . غضب رجل من بنى كنانة حتى أتى القليس ، وتغوط فيها ، فاغتم النجاشى لذلك غماً شديداً ، فقال له أبرهة : لا تحزن إن لهم كعبة هى فخرُهم فننسف أبنيتها ، ونبيحُ دماءها ، وننهبُ أموالها ، فخرج أبرهة بجنْد كثير ، وجمّ غفير ، ومع فيل أبيض هو مِلك للنجاشى ، وكان فيلاً لم ير مثله قوة وعظما ، وكان لهم دليل هو أبو رغال كبير ثقيف ، مات فى طريق مكة فرجم العرب قبره ، وفى ذلك يقول جرير فى الفرزدق :

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترجمون قبر أبى رغال

جهز أبرهة جيشه ، وقدم الفيل الأعظم ، فكان كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح ، ومعنى بروك الفيل سقوطه على الأرض ، أو لزم موضعه ، وإلاّ فالفيل لا يبرك ، كما قال البغدادى : الفيلة تحمل سبع سنين ، وإذا تم حملها وأرادت الوضع دخلت النهر حتى تضع ولدها ؛ لأنها تلد وهى قائمة ، والذكر عند ذلك يحرسها وولدها من الحيتان .

ولكن إذا وجه أى جهة أخرى غير جهة الحرم هرول ، والهرولة

ما بين المشى والعدو ، وأمر أبرهة أن يُسقى الفيلُ الخمرَ ليذهب تمييزه ، فسقوه فثبت على أمره .

يقول المرزوقى : رأى العربُ أن جهاد أبرهة واجب عليهم فتصدوا له ، واجتمعوا لقتاله فى الطريق قبائل قبائل ، فهزمهم أبرهة . وأخذ عبد المطلب جد الرسول ﷺ بحلقة البيت ودعا قائلاً :

لا هُمّ إن المــــرء يحمى　　رحله فامنع حِـــلالَكْ
لا يغلبـــنّ صليبُهـــــمْ　　ومُحالُهم غَدَواً مُحالكْ

وذلك لأنهم كانوا نصارى أهل صليب ، فلاهمّ أى : اللهم ، والحِلال بكسر الحاء البيوت المجتمعة ،والمحال : الشدة والقوة ، والغدو : الغد ، وهو ما بعد يومك . فإذا بطير غريبة لا نجدية ولا تهامية ولا حجازية ، سود ، صفر المناقير ، خضر الأعناق . وعن عائشة رضى الله عنها : كانت تلك الطير الأبابيل أشباه الخطاطيف والوطاويط ، وقد نشأت فى شاطىء البحر ، ولها خراطيم الطير ، وأكفُّ الكلاب وأنيابُها ، مع كل طائر حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، أكبر من العدسة ، وأصغر من الحمصة ، وأُرسلت ريح فزادتها شدة ، فكان الحجر يقع على رأس كل واحد منهم فيخرج من دبره ، ويقال إن أرض العرب عرفت الحصبة والجدرى ذلك العام ، ففروا وهلكوا فى كل منهل وطريق ، ولم تصب أحد منهم إلا هلك ، والذى سلم . منهم ، ولّى هارباً إلى أرض اليمن ، وصاروا يتساقطون بكل مَنْهَل ، وأصيب أبرهة بالجذام ، فسقطت أنامله وأعضاؤه ، وعندما وصل صنعاء مات بعد أن تصدع صدره عن قلبه .

وعن عائشة رضى الله عنها : رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان الناس ، ويفهم من ذلك ، أنهما كانا من جملة من سَلِم ولم يذهبا ؛ بل بقيا بمكة .

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢﴾ الهمزة للتقرير ، أى : جعل كيدهم فى ضلال وضياع فعزت قريش وهابهم الناس ؛ لأن الله معهم وناصرهُم ، ومُزقت الحبشة كل ممزق ، وخرّب ما حول تلك الكنيسة التى بناها أبرهة فلم يعمرها أحد ، وكثرت حولها السباع والحيّاتُ ومردةُ الجن ، واستمرت كذلك إلى زمن السفاح أول خلفاء بنى العباس ، فخرّبها ، وأخذ أخشابها المرصعةَ بالذهب ، فحصل له منها مال عظيم ، وبذلك عفا رسمُها ، وانقطع خبرها ، واندثرت آثارها .

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ أى أفواجاً ، فوجاً بعد فوج متتابعة بعضها أثر بعض ، وأبابيل : واحدها إبّالة ، وفى أمثالهم : ضغث على إبّالة ، وهى الحزمة الكبيرة ، شبهت جماعة الطير فى تجمعها بالإبالة .

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ أى من طين متحجر وهو الآجر .

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ كورق زرع وقع فيه الدود .

وسمى ورق الزرع بالعصف ؛ لأن شأنه أن يقطع فتعصفه الرياح وتذهب به هنا وهناك ، شبههم به فى فنائهم وذهابهم بالكلية .

أو كعصف مأكول الحب شبههم بزرع أكل حبّه، فى ذهاب أرواحهم وبقاء أجسادهم.

أو كَتِبْن أكلته الماشية وألقته روثاً، فيبس وتفرقت أجزاؤه، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث. وفيه تشويه لحالهم، وتقبيح لشأنهم، حيث إنه لم يكتف بجعلهم أهون شيء فى الزرع، وهو التبن الذى لا يجدى طائلاً، حتى جعلهم رجيعاً؛ إلا أنه عبر عن الرجيع بالمأكول عن طريق الكناية مراعاة لحسن الأدب، واستهجاناً لذكر الروث. فدأب القرآن هو العدول عن التعبير القبيح فى مثل هذه المقامات.

قال بعض المفسرين: من كان اعتماده على غير الله، أهلكه الله بأضعف خلقه، ألا ترى أن أصحاب الفيل لما اعتمدوا على الفيل، من حيث إنه أقوى خلق الله، أهلكهم الله بأضعف خلق من خلقه وهو الطير. وسبحان الله القادر.

وعن رسول الله ﷺ: « من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ ».



سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ يقال ألف الشيء، وآلفته، أى لزمته وداومت عليه، وضدّ الإيلاف : الإيحاش .

وهذه السورة متصلة بما قبلها من سورة الفيل فى قوله : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ويؤيد ذلك ماورد فى مصحف أبىّ رضى الله عنه من أنهما سورة واحدة بلا فصل .

فالمعنى : أهلك الله من قصدهم من الحبشة، فألفوا هاتين الرحلتين، وجمعوا بينهما، وثبتوا عليهما ثبوتاً متصلاً لاانقطاع فيه؛ وذلك؛ لأن الناس إذا تسامعوا بإهلاك أبرهةَ وجيشهِ تهيبوا لقريش زيادة تهيب، واحترموهم فضل احترام ولا يجترىء عليهم أحد . وكان لقريش رحلتان : رحلةٌ فى الشتاء إلى اليمن، ورحلة فى الصيف إلى الشام يمتارون فيها ويتجرون، وكانوا فى رحلتهم آمنين؛ لأنهم أهل حرم الله، وولاةُ بيته العزيز، فلا يتعرض لهم أحد، والناس بين متخطف ومنهوب، فقد كان من عادة قريش إذا أصاب أحدهم مخمصة، خرج هو وعياله إلى موضع فى الصحراء، وضربوا على أنفسهم خِبَاءً حتى يموتوا، وكانوا على ذلك إلى أن جاء هاشم ابن عبد مناف، وكان سيداً فى قومه، فقام خطيباً فى قريش وقال : إنكم أحدثتم حدثاً تَقلّون فيه وتذلون، وأنت أهل حرم الله وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع، قالوا : نحن تبع لك، فليس عليك منا

خلاف ، فجمع كلَّ بَنى أب على الرحلتين فى الشتاء إلى اليمن؛ لأنها حامية حارة ، وفى الصيف إلى الشام ؛ لأنها مرتفعة باردة ، فما ربح الغنى ، قُسم بينه وبين فقرائهم ، حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثرَ مالا ، ولا أعزّ من قريش .

وقريشٌ ولدُ النضْر بن كنانة ، ومن لم يتوالد منه فليس بقرشى ، وسموا بقريش تصغير سمكة القرش المفترسة المعروفة التى تَغلب ولا تُغلب ، وشبهوا بها نظراً لهذه الصفة اللازمة لسمكة القرش ، فالتصغير للتعظيم وفى القاموس : قرشه يَقرِشه : قطعه وجمعه من هنا وهاهنا وضم بعضه إلى بعض ، ومنهم قريش لتجمعهم إلى الحرم ، أو لأنهم كانوا يتقرشون البيعات فيشترونها . وقيل قريش من القرش وهو الكسب ؛ لأنهم كانوا كسابين بتجارتهم وضربهم فى البلاد .

إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ والرحلة بالكسر : الارتحال ، وبالضم الجهة التى يرحل إليها ، وأصل الرحلة : السير على الراحلة ، وهى الناقة القوية ، ثم استعمل فى كل سير وارتحال .

وأفرد الرحلة ، مع أن المراد رحلتى الشتاء والصيف ؛ لأمن اللبس ، كما أن الرحلة اسم جنس ، فيشمل الواحد والكثير .

فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم بسبب هاتين الرحلتين لكونهم من سكان الحرم – وقيل بدعوة إبراهيم عليه السلام

(يُجبَى إليه ثمراتُ كلّ شيء) . فالله أطعمهم ﴿ مِّن جُوعٍ ﴾ شديد كانوا فيه قبل الرحلتين ، وكانت المخمصة تصيبهم ، إلى أنْ جمعهم هاشمُ بنُ عبد مناف على الرحلتين ، فنجَوا من الجوع وتحولوا إلى الغنى وكثرة الرزق .

﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (٤) وهو خوفهم من أصحاب الفيل ، أو خوف التخطف فى بلدهم ، والمعنى كما يقول الزمخشرى : أطعمهم فلم يلحقهم جوع ، وآمنهم فلم يلحقهم خوف ، وتنكير « جوع وخوف » لشدتهما ، أى أطعمهم من جوع شديد كانوا فيه ، وآمنهم من خوف عظيم هو خوفهم من أصحاب الفيل .

وعن أم هانىء بنت أبى طالب رضى الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ فضّل قريشاً بسبع خصال لم يُعْطَها أحد قبلهم ، ولا يُعطاها أحد بعدهم : النبوة فيهم ، والخلافة فيهم ، والحجابة للبيت فيهم ، والسقاية فيهم ، ونُصروا على أصحاب الفيل ، وعبدوا الله سبع سنين لم يعبده أحد غيرهم ، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم وهى : ﴿لإيلاف قريش﴾ وهذا يفند الرأى القائل بأن سورة الفيل ولإيلاف قريش سورة واحدة .

يقول أحد المفسرين : أشار بقريش إلى النفس المشركة ، وقواها الظالمة الخاطئة ، الساكنة فى البلد الإنسانى الذى هو مكة . وأشار بالشتاء إلى القهر والجلال يعنى العجز والضعف ؛ لأن المقهور عاجز

ضعيف ، وأراد بالصيف : اللطف والجمال ، أى القدرة والقوة ، فالنفس تضعف وتشعر بالعجز عند عدم مساعدة هواها ، وتقوى وتشعر بالقدرة عند وجود المساعدة ، فهى ترتحل من اليمين إلى الشمال ، وتتقلب بين نعم الله دون أن تؤدى شكرَها .

فالبيت فى قوله ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ معظم مشرف ؛ لإضافة الرب إليه ، فما ظنك بعظمة الرب وجلاله وهيبته . ومن ثم بعث النبى عليه السلام فى أم البلاد ، وهذا الرب الجليل المفيض المعطى ، أزال عنهم الجوع ، وأفاض عليهم من خيراته فأطعمهم بها ، وآمنهم من خوف الهلاك من الجوع ؛ لأن نفس الجاهل كالميت ، ولا شك أن الأحياء يخافون من الموت ، كما يخافون الهلاك من الجوع .

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ أى هل عرفت يا محمد جزاء الذى يكذّب بالإسلام ، إن لم تعرفه ، أو إن أردت أن تعرفه ، فهو : فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ أى يدفعه دفعاً عنيفاً ، ويزجره زجراً شديداً ، وهو أبو جهل : كان وصياً ليتيم ، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه دفعاً قبيحاً ، فأيس الصبى منه ، فقال له أكابر قريش : قل لمحمد أن يشفع لك ، وكان غرضهم الاستهزاء به ، وهو عليه السلام ما كان يرد محتاجاً ، فذهب معه إلى أبى جهل ، فقام أبو جهل وبذل المال لليتيم ، فعيرته قريش ، وقالوا : أصَبَوْت ؟! فقال : لا والله ما صبوت ، ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة ، خفت إن لم أجبه يطعننى بها . وربما أريد بهذه الآية العموم فى كل من كذّب بالدين ، ومن شأنه أذيّة الضعيف ، ودفعه بعنف وخشونة .

وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ أى لا يحث أهله وغيرهم من الموسرين على بذل الطعام للمساكين ، ويمنعُ المعروف عن المستحق ، فمحبته للمال واستحكام رذيلة البخل فيه تدفعه إلى عدم البذل ، وذلك من إمارات التكذيب .

والقرآن الكريم حين يَعْدل فى التعبير عن لفظ الإطعام إلى لفظ الطعام وإضافته إلى المسكين ، فإنه يدل على أن للمساكين شركة وحقاً فى مال الأغنياء ، وحين يمنع المسكين ،فإنما هو يمنعه من حقه ، وذلك نهاية البخل ، وقسوةُ القلب وخسةُ الطبع .

ولما ذكر القرآن عدم المبالاة باليتيم والمسكين ، وأن ذلك من دلائل التكذيب بالدين مما يوجب الذم والتوبيخ ، أتبعه بقوله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ﴾ أى عذاب أليم للساهين عن صلاتهم سهو ترك لها ، وقلة التفات إليها ، وعدم مبالاة بها ، وذلك فعل المنافقين ، أو الفسقة من المؤمنين ، وهو معنى (عن) ولذا قال أنس رضى الله عنه : الحمد لله على أن لم يقل : « الذين هم فى صلاتهم » لأنه لو قال : فى صلاتهم ، لكان المعنى أن السهو يعتريهم وهم فى الصلاة بحديث النفس ، أو بوسوسة الشيطان ، وهذا لا يكاد يخلو منه مسلم ، والتخلص منه عسير .

وقرأ ابن مسعود « الذين هم عن صلاتهم لاهون » مكان ساهون ، فعلى المصلى أن لا يعبث فيها باللحية ولا الثياب ، ولا يتثاءب ولا يتلفت ونحو ذلك ، وكم من المصلين لا يدرى عن كم انصرف ، ولا ما قرأ من السورة .

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ ﴾ أى يظهرون للناس أعمالهم حتى يتقبلوا الثناء عليها ، والعملُ الصالح قد يكون فرضاً وقد يكون تطوعاً . فإن كان فرضاً فمن حق الفرائض الإعلان بها ، وتشهيرها ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « ولا غمّة فى فرائض الله » لأنها شعائر الدين وتاركها يستحق الذم ، فوجب إماطة التهمة بإظهارها وإشهارها ، كالزكاة مثلاً يحسن إظهارها حتى لا يتهم المسلم بأنه لا يؤدى الزكاة .

أما إن كان العمل الصالح تطوعاً ، فحقه أن يخفى ؛ لأنه مما لا يُلام على تركه ، ولا تهمة فيه إن لم يفعله ، كالصدقة مثلاً فإنها تطوع لا فرض ، فيحسن إخراجُها خفية حتى لا تعلمَ شماله ما تنفق يمينه ، ولكن إذا أظهر ذلك قاصداً أن يقتدى الناس بفعله ، كان جميلاً ولا بأس فيه ، وإنما الرياء أن يقصد أن تراه العين ، فتثنى عليه بالتقوى والصلاح .

والفرق بين المرائى والمنافق ، أن المنافق يبطن الكفر ، ويظهر الإيمان . والمرائى يظهر زيادة الخشوع والصلاح ؛ ليعتقد من يراه أنه من أهل الصلاح . فهو يتخذ من الرياء بالعبادة والتقوى ، وسيلة إلى طلب ما فى الدنيا من ملذات .

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ من المَعْن ، وهو الشيء القليل ، وسميت الزكاة ماعوناً ؛ لأنه يؤخذ من المال ربع العشر ، وهو قليل من كثير ، يقول أبو الليث : الماعون : هو المال بلغة أهل الحبشة . والمعنى : ويمنعون الزكاة : فإن عدم المبالاة باليتيم والمسكين موجب للذم والتوبيخ . وعدم المبالاة بالصلاة التى هى عماد الدين ، وممارسة الرياء الذى هو شعبة من الكفر ، ومنعُ الزكاة التى هى قنطرة الإسلام ، ثم سوء المعاملة مع الخلق ، أحق وأجدر بالذم من هذا وذاك . وكم نرى من المتسمين بالإسلام ؛ بل من العلماء من هو على هذه الصفة .

وربما يراد بالماعون ، ما يتعاوره الناس ، أى يستعيره الناس من بعضهم ، ويسمى بالعارية ، فيعين بعضهم بعضاً بإعارته مثل : الفأس ، والقدر ، والدلو ، والإبرة ، والقصعة ، والغربال ، والكبريت ، والماء ، والملح ، وغير ذلك مما يعتاد الناس على استعارته . ومن ذلك قول الرسول ﷺ لعائشة رضى الله عنها : « ياحميراء : من أعطى ناراً فكأنما تصدق بجميع ما طُبخ بتلك النار ، ومن أعطى ملحاً ، فكأنما تصدق بجميع ما طُيب بذلك الملح ، ومن سقى شَربة من الماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحيى نفساً » .

وفى منع الماعون زجر عن البخل الذى هو صفة المنافقين .

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) قال أعطيناك بالماضى مع أن العطايا أخروية وإن كانت فى الدنيا فمعظمها لم يتحقق بعد، ولذلك كان التعبير بالفعل الماضى تحقيقاً لوقوعه .

والكوثر : الخير المفرط سواء فى العلم أو فى العمل وشرف الدارين . قيل لأعرابية آب ابنها من السفر : بم آب ابنك ؟ قالت : آب بالكوثر : أى بالعدد الوفير من الخير . وفى القاموس : الكوثر : الكثير من كل شىء .

وروى عنه عليه السلام أنه قرأها ، فقال : « أتدرون ما الكوثر ؟ إنه نهر فى الجنة وعدنى ربى ، فيه خير كثير ، أحلى من العسل ، وأشد بياضاً من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وألين من الزبد ، حافّتاه من الزّبرجد ، وأوانيه من الفضة ، بعدد نجوم السماء ، لا يظمأ من شرب منه أبدا . أول وارديه فقراء المهاجرين مهلهَلوا الثياب ، شعْث الرءوس ، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج فى صدره ، لو أقسم على الله لأبرّه » .

والأظهر أن جميع نعم الله داخلة فى الكوثر ظاهرة وباطنة ، فمن الظاهرة خيرات الدنيا والآخرة ، ومن الباطنة العلوم الروحية الحاصلة بالفيض الإلهى ، بغير اكتساب بواسطة القوى الظاهرة والباطنة .

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) النحر فى اللَّبَّة كالذبح فى الحلق ،

والمعنى : فدمْ على الصلاة لربك ، الذى أفاض عليك هذه النعمة الجليلة ، التى لا تضاهيها نعمة ، خالصةً لوجهه ، أداء لحق شكرها ، فإن الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر ، وهى ثلاثة :

الشكر بالقلب : وهى أن يعلم أن تلك النعم من الله دون غيره .

والشكر باللسان : أن يمدح المنعم ويثنى عليه .

والشكر بالجوارح : أن يخدمه ويتواضع له .

والصلاة جامعة لهذه الأقسام .

(وانحر) أى انحر البدن التى هى خيار أموال العرب ، وتصدق بها على المحتاجين دون دعّ أو منع ، كما فى سورة الماعون (فذلك الذى يدع اليتيم .... الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) .

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ أى مبغضك ، والبغض ضد الحب ، والأبتر من البتر ، والمراد به قطع العقب من الذرية ، يقال : فلان أبتر : إذا لم يكن له عقب يخلفه . قال ابن عباس : نزلت فى العاص ابن وائل ، فكان إذا ذكر رسول الله ﷺ ، يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره ، فأنزل الله هذه السورة ، هذا المبغض هو الذى لا عقب له ، حيث لا يبقى له نسل ، ولا حسن ذكر ، أما أنت يا محمد فتبقى ذريتك ، وحسن صيتك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة ، وذلك أنهم زعموا حين مات أبناؤه عليه السلام القاسم وعبد الله بمكة ، وإبراهيم بالمدينة أن محمد عليه السلام ينقطع

ذِكْرُه ، إذا انقطع عمره لفقدان نسله ، فنبّه الله أن الذى ينقطع ذكره هو الذى يشنأه ، فأما هو فكما وصفه الله تعالى : (ورفعنا لك ذكرك) وذلك أن الله أعطاه نسلاً يبقون على مر الزمان ، وجعله راعياً للمؤمنين ، فهم أعقابه وأنصاره إلى يوم القيامة ، وقيّض له من يراعى دينه الحق ، وإلى هذا أشار أمير المؤمنين : العلماء باقون ما بقى الدهر : أعيانهم مفقودة ، وآثارهم فى القلوب موجودة ، وإذا كان هذا شأن العلماء الذين هم أتباعه ، فكيف هو وقد رفع الله ذكره ، وجعله خاتم الأنبياء عليهم السلام .

يقول بعض المفسرين : شانئك هو الأبتر المقطوع نسلُه ، فإنه ما ينبت من الأعمال الصالحة ، والأحوال الصادقة ، والأخلاق الروحانية ، هم أولادك يارسول الله وأتباعك وأعوانك ، وهى باقية دائمة دوام الدهر .

ويقولون فى مجمل السورة : إنا أعطيناك يامحمد يارسول الهدى ، المبعوث إلى الثقلين بالخير والهدى ، أعطيناك الكوثر ، وهو العلم الكثير الذى فاض من نبع الرحمن ، فصرت مظهراً للرحمة فى جميع المواطن والأحوال ، فصلّ فى مسجد الفناء المسجد الابراهيمى ، لشكر ربك وإبقاء حضوره معك فى كل الحالات ، وانحر بُدنة البُدْن فى طريق الخدمة ، وبُدنه الطبيعة فى طريق العفة ، وبُدنة النفس فى طريق الشباب ، إن شانئك من هذه القوى الشريرة هو المقطوع

أعقابه كما قال تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دابرُ القومِ الذينَ ظَلموا والحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾ ووضع ضمير الفصل بين اسم إنّ وخبرها فى الآية الكريمة (إن شانئك هو الأبتر) يفيد القصر أى : إن من أبغضك من قومك هو الأبتر المقطوع لاأنت ، فذكرك مرفوع على المنابر ، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر .

سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ ناداهم بهذا الوصف الكريه الذى يسترذلونه ، ناداهم به فى عقر دارهم ، ومحل عزتهم ، وعلو شوكتهم .

وعبر هنا بجمع المذكر السالم ؛ دلالة على قلتهم وحقارتهم وذلتهم ، وهم كفرة معدودون كالوليد بن المغيرة ، وأبى جهل ، والعاص بن وائل ، وأمية بن خلف ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس ، وغيرهم .

وقد علم الله أنه لا يأتى ولا يتأتى منهم الإيمان أبداً ، ولذا عبر باسم الفاعل (الكافرون) الذى يفيد الاستمرار والثبوت .

روى أن رهطاً من عتاة قريش قالوا لرسول الله ﷺ : هلمّ فاتبع ديننا ، ونتبع دينك ؛ بأن تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلَهك سنة ، فقال معاذ الله أن أشرك بالله أحداً غيره ، ثم قالوا : استلمْ بعض آلهتنا نصدقْك ونعبدْ إلهك ، فنزلت هذه السورة ، فغدا إلى المسجد الحرام ، وفيه الملأ من قريش ، فقام على رءوسهم فقرأها عليهم ، فأيسوا منه عند ذلك ، وآذوه وأصحابه .

هؤلاء الكافرون قد ستروا التوحيد بالشرك ، والطاعة بالمعصية ، والوحدة بالكثرة ، والنور بالظلمة ، فساروا على غير هدْى الله ، فاستحقوا النداء بوصف الكافرين .

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ أى فيما يستقبل ؛ لأن « لا » غالباً لا تدخل إلا على مضارع فيه معنى الاستقبال . والمعنى : لا أفعل فى المستقبل ما تطلبون منى من عبادة آلهتكم ، فلا أعبد من الأصنام ما تعبدون ، فإنى مأمور بالإيمان بالله والكفر بالطاغوت ، فكل ما سوى الله من قبيل الطاغوت .

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ أى ولا أنتم فاعلون فى المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهى ، والمراد : ولا أنتم عابدون عبادة يعتد بها ؛ إذ العبادة مع إشراك الأنداد لا تكون فى حيّز الاعتداد ، فأنا أعبد الواحد القهار الذى قهر بوحدته جميع المخلوقات .

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ أى وما كنت عابداً فيما سلف ما عبدتم ، فلم يعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية ، فكيف يرجى ذلك منى فى الإسلام . فلا يستمرىء عبادة الأصنام إلا من يكون فيه ميل وانحراف عن طريق الحق ، وزيغ عند العقيدة الصادقة .

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾ أى ما عبدتم فى وقت من الأوقات ما أنا على عبادته ، وهو الله تعالى . فليس فى السورة تكرار .

وقيل : هاتان الآيتان الأخيرتان لنفس العبادة فى الحال ، كما أن الأولين لنفى العبادة فى الاستقبال .

وإنما لم يقل : « ولا أنتم عابدون ما عبدت » ؛ ليوافق ما عبدتم ؛ لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام .

وفى القاموس : كان عليه السلام على دين قومه ، على ما بقى فيهم من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى حجهم ومناسكهم وبيوعهم وأساليبهم ، وأما التوحيد فقد كانوا ينبذونه ، والنبى عليه السلام لم يكن إلا على التوحيد . وآثر التعبيربـ« ما أعبد » على « ولا أنتم عابدون ماأعبد » ؛ لأن المراد هو الوصف ، كأنه قيل : ما أعبد من المعبود العظيم الشأن ، الذى لا يقدر أحد أن يصل إلى قدر عظمته .

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ أراد محمد عليه السلام أن يقرر أنه لا يعبد الأصنام التى يعبدونها ﴿وَلِيَ دِينِ ۞﴾ أراد أن يقرر أنهم يعبدون الأصنام دون أن تتجاوز عبادتها إليه ، فلا تعلقوا بعبادتها أمانيكم الفارغة ، فإن عبادتى لأصنامكم ضرب من المحال ، فدينى هو التوحيد مقصور علىّ ولا يحصل لديكم ؛ لأنكم علقتم عبادتكم لله بالمحال ، وهو عبادتى لآلهتكم أو استلامى إياها ، حيث كان مبنى كلامكم أن تعبد يا محمد آلهتنا سنة ، ونحن نعبد إلٓهك سنة وأن نتبادل العبادة ، مرة منا ، وأخرى منك .

ولكن الإيمان بالطاغوت ، والكفر بالله ، هو الدين الذى ينبغى أن نبرأ منه . والإيمان بالله ، والكفر بالطاغوت ، هو الدين الحق الذى يجب التعلق بأحكامه والتخلق بأخلاقه .

وفى الحديث : « مروا صبيانكم فليقرءوها عند المنام فلا يعرض لهم شىء ، ومن خرج مسافراً فقرأ هذه السور الخمس : « قل ياأيها

الكافرون ، وإذا جاء نصر الله ، وقل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » رجع سالماً غانماً .

وإذا أردنا أن نلقى نظرة على ما جاء فى السورة من أسلوب بلاغى ، لوجدنا أن الرسول ﷺ نفى عن نفسه عبادة الأصنام مرة بالجمل الفعلية : (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدون) التى تدل على التجدد والحدوث ، ومرّة أخرى بالجملة الإسمية التى تفيد الاستمرار والثبوت : (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ) ، كما ذكر الفعل فى جميع أحواله : ذكره بالمضارع (تَعْبُدُون) الذى يفيد الحاضر والمستقبل ، وذكره بالماضى (عَبَدْتُم) .

ومعنى ذلك أنه نفى عن نفسه عبادة الأصنام فى كلتا الحالتين : المتجددة والثابتة ، فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وهذا غاية البلاغة ، ولو أنه اكتفى بالتعبير بالجملة الفعلية لقيل : إن هذا أمر حادث قد يتغير أو يزول ، وعندئذ يميل إلى عبادة الأصنام . وكذلك لو أنه اقتصر على التعبير بالجملة الإسمية ، لقيل : أجل إن هذه صفة ثابتة ولكن قد تفارق صاحبها أحياناً ، فقد يجود البخيل ، ويغضب الحليم ، وتسبق العرجاء إلى غير ذلك ، وحتى لا يظن أحد بالرسول أن نفى عبادته للأصنام أمر قد يزول ، أو يفارقه ، عبّر بالجملتين معاً الفعلية والاسمية ؛ ليفيد المعنيين معاً : الحدوث والاستمرار ، حتى يبرأ من ذلك فى كلتا الحالتين وفى جميع الأزمان ، إصراره على نبذ الأصنام وعبادتها أقوى من إصرارهم على نبذها لعبادة الله سبحانه .

وهناك نكتة أخرى تدخل فى صميم بلاغة القرآن ، وهو أن الرسول حين خاطبهم فى أول السورة بالجملة الاسمية (قُلْ: يَا أَيُّهَا الْكَافِرُون) نفى عنهم العبادة أيضاً بالجملة الاسمية فقال : (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ) فحين وصفهم بالكفر على وجه الثبات ، نفى عنهم عبادة الله على وجه الثبات ، وهل ثمة تناسب وتوافق أرقى وأجمل وأبلغ من هذا التناسب وهذا التوافق .

* * *



سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ أى أعانك الله وأظهرك على أعدائك .

فإن قلت : إن النصر والفتح كان من عمل المؤمنين ، فلم أضاف النصر إلى الله تعالى ؟

قلت : أجل ، ولكن النصر والفتح أمور حادثة ، ولابد لها من محدث وهو الله سبحانه ، فالله هو الخالق للأسباب والدواعى وما ينبنى عليها من الأفعال ، ولذلك أضاف النصر إلى الله . والمراد بالنصر : هو المدد الإلهى والتأييد الربانى .

والمراد بالفتح : فتح مكة ، وهو الفتح الذى تطمح إليه الأبصار ، ولذلك سمى فتح الفتوح وقد وقع الوعد به فى أول سورة الفتح حين قال : ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ ومعظم المفسرين يقول إن السورة نزلت قبل فتح مكة . وقيل : نزلت فى أيام التشريق بمنى فى حجة الوداع ، وعاش عليه السلام بعدها ثمانين يوماً أو نحوها .

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ أى أبصرتَ العرب أو علّمتهم ملّة الإسلام والدخول فيها ، والآية وإن كانت خطاباً للرسول عليه السلام إلا أنها خطاب عام لكل مؤمن ، وحينئذ تظهر نكتة أخرى حين يقول فى آخر السورة ﴿واستغفره﴾ لأن

الخطاب لا يخصه ، فالأمر بالاستغفار لغيره وليس له ، وإنما دخل فى الأمر على سبيل التغليب . و ﴿أفواجاً﴾ يدخلون فيه جماعات كثيرة كأهل مكة ، والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب ، وكانوا قبل ذلك يدخلون فيه واحداً واحداً واثنين اثنين ، وروى أنه عليه السلام لما فتح مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا : إذا ظفر بأهل الحرم فلن يقاومَه أحد ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، وكل من كاد لهم ، فكانوا يدخلون فى دين الله أفواجاً من غير قتال .

يقول ابن عبد البر لم يمت رسول الله ﷺ وفى العرب رجل كافر ؛ بل دخل الكل فى الإسلام . ولكن ابن عطية يقول : الله أعلم : الذى دخل فى الإسلام : العرب عبدة الأوثان ؛ أما نصارى تغلب فما أسلموا فى حياة الرسول ولكن أعطوا الجزية .

وقيل : أراد بالناس أهل اليمن ، قال أبو هريرة : لما نزلت قال رسول الله ﷺ : « الله أكبر جاء نصر الله والفتح » وجاء أهل اليمن : رقيقة قلوبهم : الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » .

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ كلمة التسبيح تستعمل عند التعجب ، فإن من يرى أمراً عجيباً يقول : سبحان الله ، ولعل السبب فى إطلاق هذه الكلمة عند التعجب ، هو أن الإنسان عند مشاهدة الأمور العجيبة الخارِجَةِ عن مثيلاتها ، يستبعد وقوعه وتنفعلُ

نفسُه منه ، وكأنه استقصر قدرة الله على فعله ، فلذلك خطر على قلبه أن يقول : سبحان الله تنزيهاً عن العجز عن خلق أمر عجيب يستبعد وقوعه ؛ لتيقُنه بأن الله على كل شيء قدير .

والمراد من الآية : تنزيه الله سبحانه عن العجز فى تأخير ظهور الفتح ، وأحمده على التأخير .

أو فاذكره مسبّحاً حامداً ، وزد فى عبادته والثناء عليه ؛ لزيادة إنعامه عليك .

أو فصلّ له حامداً على نعمه ؛ لأن الصلات تشتمل على التسبيح . وروى أنه عليه السلام لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الشكر .

وقدم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار ؛ لأن الله سبحانه أراد لنبيّه أن يشتغل أولاً بتسبيح الله وحمده ؛ لأنه رأى الله قبل رؤية الناس كما قيل : « مارأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله » .

ويمكن أن نقول : إن فى التقديم المذكور على الاستغفار ، تعليمَ أدب الدعاء وهو أن لا يسأل الله فجأة من غير تقديم الثناء عليه .

وعن رسول الله ﷺ « إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة » .

وروى أنه لما قرأ هذه السورة على أصحابه استبشروا ، وبكى العباس ، فقال عليك السلام : ما يبكيك ياعمّ ؟ قال : نُعيتْ إليك

نفسُك ، أى ألقى إليك خبر موتك ، قال عليه السلام : إنها لكَما تقول ، فلم يُر عليه السلام بعد ذلك ضاحكاً مستبشراً .

ولعل ذلك إشارة على تمام أمر الدعوة ، وتكامل أمر الدين ، كقوله تعالى : ﴿ اليومَ أكملْتُ لكمْ دِينكُمْ ﴾ والكمال دليل الزوال ، وكما قيل : توقع زوالاً إذا قيل تم .

أو لأن الأمر بالاستغفار تنبيه على قرب الأجل ، كأنه قال : قرب الوقت : ودنا الرحيل ، فتأهب للأمر وتنبه إليه ، فالعاقل إذا قرب أجله ينبغى عليه أن يستكثر من التوبة .

وروى أنها لما نزلت ، خطب رسول الله ﷺ فقال : إنّ عبداً خيّره الله بين الدنيا وبين لقائه ، فاختار لقاء الله ، فعلم أبو بكر رضى الله عنه ، فقال : فديناك بأنفسنا وأموالنا ، وآبائنا وأولادنا .

وعنه عليه السلام : أنه دعا فاطمة رضى الله عنها فقال : إنه نُعيت إلىّ نفسى ، فبكت ، فقال : لا تبكى ، فإنك أول أهلى لحوقاً بى ، فضحكت .

وعن ابن مسعود أن هذه السورة تسمى سورة التوديع ؛ لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا ، وعن على رضى الله عنه لما نزلت هذه السورة مرض الرسول ﷺ فخرج إلى الناس فخطبهم وودعهم ، ثم دخل المنزل فتوفى بعد بضعة أيام .

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ مبالغا فى قبول التوبة ، فليكن كل تائب مستغفراً متوقعاً لقبول توبته ، فالمبالغة للدلالة على كثرة من يتوب عليه ، أو أنه بليغ فى قبول التوبة ، ينزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط ؛ لسعة كرمه .



سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ أى هلكت ، فإن التباب هو الهلاك ، أو خسرت ، فإن التباب أيضاً خسران يؤدى إلى الهلاك .

واللهب واللهيب : اشتعال النار إذا خلص من الدخان ، أو لهبها : لسانها ، ولهيبها : حرها . وأبو لهب : كنيته عبد العزّى ابن عبد المطلب ، وكنى بها لجماله ، أو لكثرة ماله . فالتكنى هنا ينطبق على حاله لإشراق وجنتيه وتلهبهما ، وإلا فليس له ابن يسمى باللهب .

وآثر القرآن التعبير بتبّتْ على الهلاك ، وأسنده إلى اليدين ؛ لما روى أنه لما نزل قوله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ارتقى الرسول ﷺ الصفا ، وجمع أقاربه فأنذرهم وقال : يا بنى عبد المطلب يا بنى فِهر ، إن أخبرتكم أنّ بسفح هذا الجبل خيلاً ، أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى الساعة ، فقال عمه أبو لهب : تبّا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ وأخذ حجراً بيده ليرميه عليه السلام به ، فمنعه الله من ذلك حيث لم يستطع أن يرميه . فوصْف يديه بالهلاك إذن ظاهر ، أما وصفهما بالخسران فلرد ما أعتقده : فقد كان كثير الإحسان إلى رسول الله ﷺ ، وكان يقول : إن كان الأمر لمحمد ، فيكون لى عنده يد ، وإن كان لقريش ، فلى عندها يد ، فخسر

يده التى كانت عند محمد عليه السلام بعناده له وتخليه عنه ، كما خسر يده التى كانت عند قريش ؛ لخسران قريش وهلاكهم فى يد محمد .

(وتبّ) أى هلك كلية ، والأُوْلى هلكت يداه ، فهو إخبار بعد إخبار ، وعبر بالماضى لتحقق وقوعه .

ويقال : إن تبّت الأولى التى أسندت إلى اليد كناية عن هلاك النفس ، ومعنى (وتبّ) قد حصل ذلك الهلاك وتأكد ، وهى ليست للدعاء ويؤيد ذلك قراءة من قرأ (وقد تبّ) لأن كلمة قد لا تدخل على الدعاء . والتكنية هنا ليست للتكريم كما هو العهد فى التكنّى ، وإنما كنى بها لاشتهاره بها . أو للتعريض بأنه جهنمىّ ؛ لأنه سيصلى ناراً ذات لهب منبعث من جهنم ، فيلزم من ذلك أنه جهنمى ، ففيه انتقال من نار جهنم إلى لهبها ، وهى كناية قصد بها الذم . قال فى الإتقان ليس فى القرآن من الكنى غير أبى لهب ، ولم يذكر اسمه وهو عبدالعزّى ، أى الصنم ، فنسبة العبودية إلى الصنم حرام شرعاً .

ولم يقل فى هذه السورة : قل تبت إلخ ؛ لئلا يكون مشافهاً لعمّه بالشتم والتغليظ ، وإنْ شتمه عمه ؛ لأن للعم حرمة كحرمة الأب ، ومحمد ﷺ مبعوث رحمة للعالمين ، وله خلق عظيم ، فأجاب الله عنه.

مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ (٢) ما هنا نافية ، أى لم يغن عنه أصل ماله ، وما كسبه من الأرباح والمنافع والوجاهة والأتباع ، وأين هذا من قارون ولا أحد أكثر منه مالاً ، فهل دفع ذلك عنه الموتَ أو العذاب .

ويجوز أن تكون « ما » استفهامية ، فيكون المعنى : أىّ شيء أغنى عنه ماله ، وما كسبه منه .

وربما يكون المعنى : ما أغنى عنه ماله الموروث من أبيه ، والذى كسبه بنفسه ، أو عمله الخبيث وكيده فى عداوة النبى ﷺ .

وقد هلك أبو لهب بالعَدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال ، والعدسة بَثْرة تخرج فى البدن تشبه العدسة ، وهى من جنس الطاعون تقتل غالباً ، فاجتنبه أهله مخافة العدوى ، وكانت قريش تتقيها كالطاعون ، فبقى ثلاث ليال حتى انتفخ وأنتن ، ثم استأجروا بعض السودان ودفنوه . وفى بعض التفاسير : لم يحفروا له حفيرة ، ولكن أسندوه إلى الحائط ، وقذفوا عليه الحجارة من خلف الحائط ، حتى واروه ، وكانت عائشة رضى الله عنها إذا مرّت بموضعه غطت وجهها ؛ لمنظره الكريه ورائحتِه العفنة .

سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ سيدخل لا محالة ناراً عظيمة ذات اشتعال وتوقد ، وهى نار جهنم .

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ وهى أم جميل بنت حرب بن أمية ، أختُ أبى سفيان واسمها العوراء ، كانت تحمل حُزمة من الشوك والحسك فتنثرها بالليل فى طريق النبى عليه السلام ، حتى صار وأصحابه فى شدة وعناء ، ونصَبَ حمالةَ الحطب على الذم ، أى ذم حمالة الحطب ، والمراد أنها تحمل يوم القيامة حزمةَ حطب ، وفى

جيدها سلاسل النار ، كما يعذب كل مجرم بما يناسب حاله فى جرمه ، وعن قتادة ، أنها مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها ، فعيرت بذلك البخل .

وقيل : كانت تمشى بالنميمة وتفسد بين الناس ، وكَنّى بحمالة الحطب عن أنها توقد بينهم الفتنة وتورث الشر .

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ فى عنقها حبل مفتول من ليف ، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها فى جيدها كما يفعل الحطابون ؛ تحقيراً لحالها ، وتصويرها بصورة بعض الحطّابات ؛ لتغضب من ذلك ويُشَق عليها ، وهى فى بيت العزة والشرف والثروة ، قال الهمدانى : كانت أم جميل تأتى كل يوم بإبّالة من حسك ، فتطرحها فى طريق المسلمين ، فبينما هى ذات ليلة حاملة حزمة ، أعيت فقعدت على حجر لتستريح ، فجذبها ملك الموت من خلفها ، فاختنقت بحبلها ، حتى هلكت . وكفى الله المؤمنين شرها وشر زوجها أبى لهب .

٥٥٥٥٥

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

سميت هذه السورة بسورة الإخلاص؛ لإخلاص الله من الشرك ، أو للخلاص من العذاب ، أو لأنها خالصة من التوحيد ، يقول الإمام الغزالى :

عفْوُ ربّى وثيقتى بالخَلاص   واعتصامى بسورةِ الإخْلاص

أو لأن السورة خالصة لله ليس فيها ذكر شيء من الدنيا والآخرة ؛ لأنها تخلّص قارئها من شدائد الآخرة ، وسكرات الموت ، وظلماتِ القبر ، وأهوال القيامة .

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ صدر الآية بالضمير (هو) للتنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها ، وفسر الضمير بـ « الله أحد » لمزيد من التقرير والتأكيد بذات الله وصفاته .

وقد رُوى أن المشركين قالوا للنبى ﷺ : صف لنا ربّك الذى تدعونا إليه ، وبيّن نسبه واذكره . فنزلت . يعنى بيّن الله نسبه بتنزيهه عن النسب ، حيث نفى عنه الوالدية والمولودية والكفاءة ، أى المماثلة .

ووصف نفسه بالأحد حتى لا يشاركه شيء فى ذاته .

كما أن الواحد اسم لمن لا يشاركه شيء فى صفاته .

يعنى أن الأحد هو ذات الله وحدها بلا اعتبار كثرة أو تعدد ، فأثبت له الأحدية التى فيها غناء عن كل ماعداه .

وفى قوله : ﴿هو الله أحد﴾ ثلاثة ألفاظ فى كل واحد منها إشارة إلى مقام من المقامات .

فالمقامُ الأول : مقام المقرّبين ، وهم الذين نظروا إلى حقائق الأشياء ، فلو يَروا موجوداً سوى الحق تعالى . وكلمة (هو) يشيرون بها إلى الحق ، ولا يفتقرون فى تلك الإشارة إلى مايميز المراد بها من غيره ؛ إذ لا يشاهدون بعقولهم إلا الواحد فقط .

والمقام الثانى : مقام أصحاب اليمين ، وهو دون المقام الأول ، وذلك لأنهم شاهدوا الحق تعالى موجوداً ، وشاهدوا الخلق أيضاً موجوداً ، فحصلت الكثرة فى الموجودات ، فلم تكن لفظة (هو) كافية فى الإشارة إلى الحق تعالى ؛ بل لابد من ذكر مايميزها عن الخلق ، فقرنها بلفظة (الله) ؛ لأن لفظة الله اسم للموجود الذى يفتقر إليه ماعداه ، ويستغنى هو عن كل ماعداه ، وبذلك تميزت ذات الله عما عداها .

المقام الثالث : مقام أصحاب الشمال ، وهو أخسّ المقامات ، وهم المشركون بالله سبحانه ويجيزون التعدد ، فذكر لفظة (أحد) رداً على هؤلاء ، وإبطالاً لمقالهم فقيل : (قل : هو الله أحد) .

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ أى المصمود إليه فى الحوائج ، المستغنى

بذاته ، وكل ما عداه محتاج إليه فى جميع جهاته ، فلا صمد فى الوجود سوى الله ، فإذا كان هو الصمد ، فمن انتفت عنه الصمدية لا يستحق الألوهية .

فبيّن أولاً ألوهيته المتضمنة صفات الكمال كلها .

ثم أحديّته الموجبة لتنزيهه عن شائبة التعدد أو الشرك .

ثم صمديّته المقتضية استغناءه عما سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه فى وجودها ، وبقائها ، وسائر أحوالها ، فهو الذى يقصد إليه لدفع البليّات وإيصال الخيرات ، وإليه الشفاعة لدفع العذاب ، وإعطاء الثواب .

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

ففى قوله (لم يلد) تنصيص على إبطال زعم المفترين فى حق الملائكة بأنهم بنات الله ، وفى حق المسيح بأنه ابن الله ، ولذلك ورد النفى بصيغة الماضى فقال « لم يلد » ولم يقل : « لن يلد » أو « لا يلد » أى لم يصدر عنه ولد ؛ لأنه لا يجانسه شيء حتى يكون له من جنسه فيتوالد ، أو يفتقر إلى ما يعينه أو يخلفه ؛ لاستحالة الحاجة أو الفناء عليه .

فإن قلت : إن النصارى فريقان : منهم من قال : عيسى ولد الله حقيقة ، فأشار فى الرد عليهم قوله (لم يلد) .

ومنهم قال : اتخذه ولداً تشريفاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً تشريفاً ، فقوله ﴿لمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إشارة إلى الرد عليهم .

وقوله : (لم يولد) أى لم يصدر عن شيء لاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً أو لاحقاً . كما أن المولود لابد أن يكون مثل الواحد ، ولا مثليّة بين ذات الله الأزلية وبين ذاتيتنا الممكنة ، فانتفت ولادته سبحانه .

وقدم ذكر « لم يلد » على « لم يولد » ؛ لأن من الكفار من ادعى أن له ولداً ، ولم يدع أحد أنه مولود . وقال أبو الليث : « لم يلد » يعنى : لم يكن له ولد يرثه ، « ولم يولد » يعنى لم يكن له والد يرث ملكه .

﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ أى لم يماثله أحد ، بل هو خالق الأكفاء ، ويجوز أن يكون من الكفاءة فى النكاح نفياً للصاحبة والزوجة ، وقدم « له » على « كفوًا » للاهتمام بذات الله ؛ لأن المقصود نفى المكافأة عن ذاته .

وقد جاء فى الحديث : « إن هذه السورة تعدل ثلث القرآن » فإن مقاصده منحصرة فى بيان العقائد ، والأحكام ، والقصص ، وسورة الإخلاص خالصة فى العقائد وحدها .

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾ الفلق : الصبح ؛ لأنه يفلق عنه الليل ، فهناك مفلوق ، ومفلوق عنه ، فالمفلوق عنه هو المستور الذى انكشف بعد شق الساتر ، والحجاب الساتر هو المفلوق . فالصبح صار مفلوقاً عنه بإزالة ما عليه من ظلمة الليل ، ويقال فى المثل : هو أبين من فلق الصبح .

وإضافة اسم الرب إلى الفلق ينبىء عن النور عقيب الظلمة ، والسعة بعد الضيق ، والرتق بعد الفتق ، وفيه أيضاً إعاذة العائذ مما يتعوذ منه ، وإنجائه ، وتقوية لرجائه ، والإعاذة بربه . فإذا طلع الصباح تحول الثقل إلى خفة ، وصار الغمّ سروراً ، والضيق فرجاً ومخرجا .

وروى أن يوسف عليه السلام لما ألقى فى الجبّ وَجِعت ركبته وجعاً شديداً ، فبات ليلته ساهراً ، فلما اقترب طلوع الصبح ، نزل جبريل يسأله بأن يدعو ربه فقال يا جبريل : ادع أنت ، وأؤمّن أنا ، فدعا جبريل ، وأمّن يوسف عليهما السلام فكشف الله تعالى ما كان به من الضرّ ، فلما طاب وقت يوسف ، قال يا جبريل : أنا أدعو وأنت تؤمن ، فسأل يوسف ربه أن يكشف الضر عن جميع أهل البلاء فى ذلك الوقت ، فلا جرم ما من مريض إلا ويجد نوع خفة فى آخر الليل .

مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ أى من شر ما خلقه من مؤذيات الإنس والجن ، والسباع والهوام ، وكل ما يؤذى ويضر ، فيندفع إلى الضرب أو القتل أو الشتم أو العضّ أو اللّدغ أو السحر أو نحوها . وأضاف الشر إليه تعالى ؛ لأن عالم الخلق لا يخلو من مثل هذه الشرور .

وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ فالغاسق يدخل فى شرار الخلق المذكورين فى الآية السابقة ، إلا أنه خصه بالذكر ؛ لمزيد الحاجة إلى الاستعاذة منه ؛ لكثرة وقوعه ، فكان أدعى إلى الاستعاذة . والغاسق هو : الليل الشديد الظلمة ، وأضاف الشر إلى الليل لكثرة حدوثه فيه ، والتحرز منه أصعب وأعسر ، ولذلك قيل : الليل أخفى للويل ، وقيل : الليل أغدر ؛ لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر ، والغوث يقل فى الليل ، ولذا لو شهر إنسان سلاحه بالليل فى وجه إنسان ، فقتله المشهر عليه لا يلزمه القصاص ، ولو كان نهاراً يلزمه ؛ لأنه يوجد فيه الغوث ، فالليل إذن مظنة خروج المؤذيات والجن والهوام ، وانبعاث أهل الحرب ، وسفك الدماء . ونهى رسول الله ﷺ عن السير فى أول الليل ، وحذّر من الشر والبلاء .

وقيل : الغاسق : القمر إذا امتلأ ، ووقب : دخل فى الكسوف واسودّ لونه ، فتصيب بعض الأبدان آفات تحدث بسببه .

وقيل : الغاسق : الثريا ، ووقوبها : سقوطها ؛ لأنها إذا سقطت كثرت الأمراض والطواعين ، وإذا طلعت قلت الأمراض والآلام .

وقيل : هو كل شر يعترى الإنسان ، ووقوبه : هجومه .
وقيل : هو الأسود من الحيات ، ووقبه : ضربه ولسعه .

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾

وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ من النفث ، وهو شبه النفخ يكون فى الرقية ولا ريق معه ، فإن كان معه ريق ، فهو التفل ، والنفّاثات بالتشديد ، يراد منها تكرار الفعل والاحتراف به . والعقد : جمع عقدة ، وهى مايعقده الساحر على حبل أو شعر وهو ينفث ويرقى ، والمعنى : ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللاتى يعقدن عقداً فى خيوط وينفثن عليها ، فشبه كيدهن بالسحر والنفث فى العقد .

ويروى ابن عباس وعائشة رضى الله عنهما : كان غلام من اليهود يخدم النبى ﷺ وكان عنده أسنان من مشطه عليه الصلاة والسلام ، فأعطاها اليهود فسحروه فيها ، وتولاه لبيد بن أعصم اليهودى وبناته ، وهن النفاثات فى العقد ، فدفنها فى بئر أريس ، أو بئر تسمى ذروان ، فمرض النبى عليه الصلاة والسلام ، وروى أنه لبث فيه ستة أشهر ، فنزل جبريل بالمعوذتين ، وأخبره موضع السحر ، وبمن سحره ، وبم سحره ، فأرسل الرسول ﷺ بعض أصحابه فنزحوا ماء البئر فكأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة التى فى أسفل البئر فأخرجوا من تحتها الأسنان ، ومعها وتر قد عقدت فيه إحدى عشرة عقده مغرزة بالإبر ، فجاءوا بها النبى عليه السلام ، فجعل يقرأ المعوذتين عليها ، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد عليه السلام خفّة حتى انحلت

العقدة الأخيرة عند تمام السورتين ، فقام عليه السلام كأنما أنشطُ من عقال ، وجعل جبريل يقول : باسم الله أرقيك ، والله يشفيك من كل شيء يؤذيك ، من عين وحاسد .

ويقال : إن المراد بالنفث فى العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل عن معاشرة نسائهم ، فالنفاثات هى جنس النساء اللاتى شأنهن أن يغلبن على الرجال ، ويحولنهم عن آرائهم بأنواع المكر والحيلة . وعندئذ يكون معنى الآية : التعوذ من شر النساء ، فهن لأجل استقرار حبهن فى قلوب الرجال ، يتصرفن فيهم ، ويحولنهم من رأى إلى رأى ، ولذا أمر الله تعالى نبيه بالتعوذ من شرهن .

وبالجملة : فالله تعالى ما كان يسلط على نبيه إنساً ولا جناً يؤذيه فيما يتعلق بنبوته وعقله ، وأما الإضرار به من حيث بشريته وبدنه فلا غرابة فيه ، وتأثير السحر عليه لم يكن من حيث إنه نبىّ ، وإنما كان فى بدنه من حيث إنه إنسان وبشر ، يعرض عليه سائر ما يعرض على البشر من صحة ومرض ، وأكل وشرب مما لا يقدح فى نبوته .

وإنما يكون قادحاً فيها لو وُجد للسحر تأثير فى أمر يرجع إلى النبوة ، ولم يوجد ذلك ، كيف والله تعالى يعصمه من أن يضره أحد فيما يرجع إليها .

فإن قيل لماذا لم يردّ الله كيد الكائد إلى نحره بإبطال مكره وسحره ؟

قلنا : الحكمة فيه الدلالة على صدق رسوله ، وصحة معجزاته ، وكذب من نسبه إلى السحر والكهانة ؛ لأن السحر عمل فى جسمه واعتراه نوع من الوجع ، ولم يعلم النبى ذلك حتى دعا ربه فأجابه وبين له أمره ، فإن كان الرسول ساحراً كما اتهم ، لما غاب عنه ذلك . ولو كانت معجزاته الخارقة للعادات من باب السحر على مازعم أعداؤه ، لما اشتبه عليه ماعمل من السحر فيه ، ولتوصل إلى دفعه عنه ، وهذا من أقوى البراهين على صدقه ونبوّته .

وإنما أخبر النبى عليه السلام عائشة رضى الله عنها من بين نسائه بما كشف الله له من أمر السحر ؛ لأنه كان مأخوذاً عن عائشة فى هذا السحر على مارواه يحيى بن يعمر .

فإن قلت : لم عرّف النفاثات ، ونكر « غاسق وحاسد » ؟

قلت : عرف النفاثات ؛ لأن كل نفّاثة شريرة .

ونكّر غاسق ؛ لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر ، وإنما يكون فى بعض دون بعض .

ونكّر حاسد ؛ لأن كل حاسد لا يضر ، وكل حسد لا يؤذى ؛ لأنه لا يتحقق . فالحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وأول ذنب عُصى به الله فى السماء ، حسد إبليس لآدم ، فأخرجه من الجنة مطروداً ، وصار شيطاناً رجيماً .

وأول ذنب عصى به الله فى الأرض قتل قابيل لأخيه هابيل .

وختمت هذه السورة بالحسد ؛ ليظهر أنه أخبث الطبائع ، ولا يقارفه إلا من أظلمت نفسه ، وتكدرت روحه .



سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾ أى مالك أمورهم ومتولى شئونهم بمنح ما يصلحهم، ودفع ما يضرهم، فرب الناس الذى خلق الإنسان وأفاض عليه من كماله نتعوذ بألوهيته وصفاته، وفى الحديث الشريف: **«أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك» فاستعاذ أولاً بصفاته من الرضى والمعافاة، ثم استعاذ ثانياً بذاته فقال: أعوذ بك منك.**

﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝٢﴾ أراد الله سبحانه أن يبين أن تربيته للخلق ليست كتربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من ممتلكاتهم ومواليهم؛ بل تربيته جل شأنه بطريق الملك الكامل، والتصرف الشامل، والسلطان القاهر.

وعبر هنا بكلمة «ملك الناس» وليس بكلمة «مالك الناس» لما فيها من الترجيح، فالأحاديث النبوية تبين أسرار القرآن وتنبه عليها، وقد ورد فى الحديث فى بعض الأدعية النبوية: «لك الحمد، لا إله إلا أنت ربّ كل شيء ومليكه» ولم يرد ومالكه. وقد جوزوا القراءة بمالك وملك فى سورة الفاتحة لا فى هذه السورة؛ حذراً من التكرار؛ بل إن الراجح عند المحققين فى سورة الفاتحة هو «الملك» لا «المالك»

﴿إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣﴾ أراد الله أن يبين أن ملكه تعالى ليس لمجرد

الاستيلاء عليهم ، والقيام بتدبير أمور سياستهم ، وترتيب مبادىء حفظهم وحمايتهم ، كما هو قصارى أمر الملوك ، بل هو بطريق الإله المعبود ، المشتمل على القدرة التامة على كل تصرف بما فيه الإحياء والإماتة ، والإيجاد والعدم . وانظر هنا إلى تكرار كلمة « الناس » إذ أن الناس أشرف مخلوقاته ولذلك ختم القرآن بذكرهم .

مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الوسوسة هى : الصوت الخفى الذى لا يسمع ولا يحسّ حتى يحترز منه ، والوسواس هو : الشيطان ؛ لأنه يدعو إلى المعصية بكلام خفى يفهمه القلب من غير أن يسمع صوته ، وذلك بأن يغرى الإنسان بسعة رحمة الله ، أو أن له فى العمر سعة ، وأن وقت التوبة مازال مفتوحاً ، ووصف الشيطان بالوسوسة ؛ لأنها أعظم صفاته ، وأكثرها شراً ، وأقواها تأثيراً ، وأعمها فساداً .

وينحصر مايدعو الشيطان إليه ابن آدم فى ست مراتب :

المرتبة الأولى : الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه ، واستراح من تعبه معه ، وهذا أول مايريده من العبد .

المرتبة الثانية : البدعة ، وهى أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لأن المعصية يتاب منها فتكون كالعدم ، والبدعة يظن صاحبها أنها صحيحة ، فلا يتوب منها ، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى مابعدها .

المرتبة الثالثة : وهى الكبائر على اختلاف أنواعها ، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى .

المرتبة الرابعة : وهى الصغائر إذا اجتمعت أهلكت صاحبها ، كالنار الموقدة من الحطب الصغار .

المرتبة الخامسة : وهى اشتغاله بالمباحات التى لا ثواب فيها ولا عقاب ؛ بل عقابها فوات الثواب الذى فات عليه باشتغاله بها .

المرتبة السادسة : وهى أن يشتغل بالعمل الأقل فضلاً ، عما هو أفضل منه ؛ ليفوته ثواب العمل الفاضل .

ويروى البخارى عشرة أشياء فى أصل الوسوسة وكيف نقاومها :

أولها : الحرص ، فقابله بالقناعة .

والثانى : الأمل ،فاكْسِرْه بمفاجأة الأجل .

والثالث : التمتع بشهوات الدنيا ، فقابله بزوال النعمة .

والرابع : الحسد ، فاكسره برؤية العدل .

والخامس : البلاء ، فاكسره برؤية العافية .

والسادس : الكبر ، فاكسرة بالتواضع .

والسابع : الاستخفاف بحرمة المؤمن، فاكسره بتعظيمه واحترامه .

والثامن : حب الدنيا ، فاكسره بالإخلاص .

التاســع : طلب الرفعة فاكسره بالخشوع والذلة .

العــاشر : المنع والبخل فاكسره بالجود والسخاء .

فإذا قاوم الإنسان شيطانه خنس ، فـ(الخنّاس) الذى من عادته أن يخنس أى : يتأخر إذا ذكر الإنسان ربه .

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ إذا غفلوا عن ذكره الله ولم يذكروه فى قلوبهم ، فهنا يجد الشيطان مدخلاً لوسوسته ، ولذلك يقول بعض المتأولين : (الذى يوسوس فى صدور الناسى) لأنه نسى الله وغفل عن ذكره ، وحذفت الياء من (الناس) كقوله تعالى : (يوم يدعو الداع) بحذف الياء .

وتأمل السر فى قوله تعالى ﴿يوسوس فى صدور الناس﴾ ولم يقل : « فى قلوب الناس » لأن الصدر هو ساحة القلب وبيته ، ومنه تدخل وسوسة الشيطان ، فتجتمع فى الصدر ثم تلج فى القلب ، ومن القلب تخرج النوايا والإرادة ، فتتفرق فى الأعضاء . فالشيطان يدخل فى الصدر لتنفذ وسوسته إلى القلب .

وقوله : ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ﴾ يدل على أنه لا يوسوس فى صدور الجن ، ولم يرد دليل على أن الجنىّ يوسوس فى صدور الجنىّ ، ويدخل فيه كما يدخل فى الإنسىّ ويجرى منه مجراه من الإنسىّ .

مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ الجنّة : جماعة الجن ، فالموسوس ضربان : جنيّ وإنسيّ ، والله يقول : ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ (الأنعام ١١٢)

والموسوَس إليه ، نوع واحد ، وهو الإنس ، وكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى ، فشيطان الإنس يكون كذلك ، فيظهر نفسه فى صورة الناصح المشفق ، فإن زجره السامع يخنس ويترك الوسوسة ، وإن قبل السامع كلامه استرسل وبالغ فى القول .

وقد يوسوس المرء لنفسه ، فقد قال تعالى : ﴿ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ (ق ١٦) فإذا جاز أن توسوس له نفسه جاز أن يوسوس له غيره ، فحقيقة الوسواس لا تختلف باختلاف الأشخاص .

وفى (**الجِنَّة**) إشارة إلى القوى الخفية المستورة المستجنّة ؛ إذ سمى الجن بالجن ؛ لاستجنانه أى خفائه .

وفى (**النَّاس**) إشارة إلى القوى الظاهرة الواضحة ؛ إذ الناس من الإيناس ، وهو الظهور كما قال تعالى : ﴿ إنى آنست نارا ﴾ (طه ١٠)

وفى هذا المقام نكتة لطيفة ينبغى مراعاتها :

فى سورة الفلق ، المستعاذ به مذكور بصفة واحدة وهى أنه رب الفلق . والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات وهى : الغاسق والنفاثات والحاسد .

أما فى هذه السورة ، فالمستعاذ به مذكور بثلاثة أوصاف ، وهى : الربّ ، وملك ، وإله . والمستعاذ منه آفة واحدة وهى الوسوسة .

ومن المعلوم أن المطلوب كلما كان أهم ، والرغبة فى أتمّ ، كان ثناء الطالب عند طلبه أكثر وأوفر ، فلذا ذكر المستعاذ به بهذه الأوصاف الثلاثة .

وعن عائشة رضى الله عنها قال : « كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه فنفث فيهما وقرأ : قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يصنع ذلك ثلاث مرات » فإذا فعل المرء ذلك نهض من فراشه سليماً معافى .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يقرأ سورة أحب إلى الله ولا أبلغ من قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، فإن استطعت أن لا تدعهما فى صلاة فافعل » .

الفهـرس

رقم الإيداع ٢٣٥٣ لسنة ١٩٩٠

